أنداء الفجر

نظم

أحمد زكي أبي شادي

مطبعة التعاون

أنداء الفجر

نظم

أحمد زكي أبي شادي

مطبعة التعاون

مختارات

من نظم الشاعر فى سنة ١٩١٠ م .

الطبعة الثانية

يولية سنة ١٩٣٤

الثمن خمسون مليما

المطبوع ٥٠٠ نسخة

٥٠ قصيدة ومقطوعة

٤٢٥ بيتـــــا

تحية

لشاعر مصر الكبير محمد حافظ ابراهيم

لكَ يا (زكي) من المحبـ ـةِ والثناءِ كفاءُ قدرِكْ

شرفُ التفوّقِ والجما لِ العبقريِّ جميلُ شعرِكْ

صدحت بلابلهُ بسحـ ـرِكَ مثلما لُذْنا بسحرِكْ

وتردّدُ الأجيالُ صد حتها كترديدي لذكرِكْ

بعثَ القريضُ فروحُهُ روحٌ على (أنداءِ فجرِكْ)

حافظ ابراهيم

EGYPTIAN LIBRARY

إهداء الديوان

إلى زينب

رُبعُ قرنٍ مضى وهيهاتَ يمضي … شعلةُ الحبِّ عن وثوبٍ وومضِ
لم أزل ذلك الفتى في جنوني … وفؤادي بنبضه أيَّ نبضِ
ذكرياتُ الهوى وأشباحُه الفتّـ … ـورى أمامي في كل صحوٍ وغمضِ
أنا منها فكيف أرتدُّ عنها ؟! … مرحباً بالخيال لمسي وقبضي !
نُثِرتْ في السطور بعد احتجابٍ … كنثيرِ الحيا على زهرِ روضِ
فإذا بي أعودُ طفلاً صغيراً … باكياً لاهياً بأنسي وركضي
فاقبلي يا سماءُ وحيي زهوراً … من خيالِ السخيِّ لا جودِ أرضي
وأعيدي على الصِّبا في تطلّعي … نظرةَ الحبِّ ينتفضْ مثل نفضي
كم شقينا تفرُّقاً وحياةً … وخضعنا لحكمِ دهرٍ مُمِضِّ
ورجعنا ننوحُ نوحَ … ـنِ على ذلك الصِّبا المنقضِّ
علمَ الحبُّ ليس غيرُكِ مجدي … في وفاءٍ وليس غيرُكِ خفضي !

أحمد زكي أبو شادي

يوليه سنة ١٩٣١

EGYPTIAN LIBRARY

تصدير

لا أعرف لذةً روحيةً أشهى لديّ من كتابة هذا التصدير للطبعة الثانية من ديوان (أنداء الفجر) — أول دواوين أبي شادي — فقد تجاوبت روحي مع عواطف هذا الشاعر العبقري وأخيلته العلوية تجاوباً هو سر سعادتي النفسية كلما اصطحبتُ روائعه الساحرة وتمثلت شخصيته الآسرة . .

لقد مضى ربع قرن على هذا الشعر الفتيّ ، وأعلم أن أبا شادي هو أول ناقد له ، فهو دائم التطلع إلى الكمال ولا يرضى عن آثاره الحاضرة فما بالك بآثاره القديمة ، ومع ذلك فآثار الصبا لها جمالها ولها ذكرياتها العذبة وإن اقترنت بالألم الدفين ، وإن لم تخل من ضعف . . . وإذن فقد أحسن شعراء أبولو الذين ألحوا بإعادة طبع هذا الديوان الصغير ، فإن فيه ذكريات عزيزة لا يستطيع أبو شادي نفسه أن يتجاهلها فهو ما يزال يقتات منها ، وإن فيها لبذرة من بذور الإصلاح التي كونت مدرسة الشعر المصري الحديث ، وإن فيها لدلائل كافية على الشمائل الأدبية والمواهب الفنية التي طُبع عليها شاعرنا وضمنت له ما نال من تفوّق .

لا أريد أن أسهب في هذا التصدير فآرائي في شعر أبي شادي معروفة [1] ، وسأكتفي بالتنبيه إلى المواضع النقدية البارزة :

---

(١) راجع كتاب (أبو شادي في الميزان)

(١) يلاحظ بسهولة أن أبا شادى الفتى هو أبو شادى الكهل : شاعر الحب والجمال ، ومن الطبيعى أن يكون ذلك من روح الصبا ولكنه روح قوى متصل الأسباب والنوازع حتى الآن . وأبو شادى الفتى يتآمر عليه الحياء (وهو يصرح بذلك فى أكثر من موضع فى شعره) ، ولا يزال هكذا أبو شادى الكهل ، ولا ترى شذوذه عن ذلك فى شعر كهولته إلا نادراً ، وربما لم يكن له شخصياً فضل فى مصارعة ذلك الحياء الذى أفسد عليه حياته العاطفية ! وهو دائم التسامى فى حبه ، ولو حاول عكس ذلك فسرعان ما يلتجىء بفطرته ثانية إلى ذلك التسامى . وهذا الديوان الصغير لا يمثل نكبته الغرامية فيما بعد ، ولكنه يمثل قلقه أصدق تمثيل فى تلك الفترة من حياته .

(٢) نرى أن الألم الممض يلح بالشاعر منذ حداثته : وآية ذلك أنه نشأ نشأة حزينة قاسية مبعثها الفرقة بين الوالدين ، فذاق ألواناً من الحرمان والهموم واقتات بالكآبة والألم منذ طفولته ، وزاده اعتلال صحته فى صغره . بيد أنه مثال مجسم للشمم وعزة النفس منذ نشأته ، معتداً دائماً بها ولكن فى غير غرور ، شأن الفنان الموهوب الكمالى النزعة . وقضى الشاعر صباه فى عهد من القلق السياسى الذى ثارت فيه نفوس الشبان فنرى آلام الوطنية متوثبة متأججة من بيوت شعره ، ونسمع صيحته :

قليل على الأحزان ما انهد من جسمى إذا كان عيش الحر أشبه بالأثم !

(٣) نرى أن ولوع أبى شادى بالمعنويات هو هو منذ حداثته (أنظر قصيدته « المعنى الأقدس ») كما نرى افتتانه منذ نعومة أظفاره بحياة الطبيعة

ورموزها — ولا أقول بمشاهدها فقط — متغلباً عليه ، ونلمح حبه للاطلاع (أنظر قصيدة « موسيقى الوجود ») وجراءته فى التخيل والتعبير (أنظر قصيدة « الخالق الفنان ») وانسانيتــه العميقة وتأملاته الفلسفية (أنظر « فؤادى » و « مسرح الليل » و « أنداء الفجر » وأمثالها من شعره) وإن كانت نماذج ذلك الشعر بعيدة بطبيعة الحال عن أن تمثل نضوجه الفنى الحاضر ، ولكنها جميعاً لهـا طابع شخصيته الطليقة القوية .

(٤) لا يمكننا أن نحدّد شعر أبى شادى فنضعه فى قسم معين ، لأن نفسه طموحة متعددة الجوانب عالمية النظرات ، وشواهد ذلك لا تخفى على الناقد حتى فى شعر صباه الذى يسبق سنه بمراحل بعيدة .

ولكن لنا أن نقول إن أبا شادى فى شعره لا يخاطب جيله وحده بل يخاطب أجيالاً لم توجد بعد ويخاطب الغيب والمجهول ، وله شرَهٌ فكرىٌّ وروحىٌّ فلا يقنع بشىء مما يراه أو مما ينظمه . وهو برغم قوته أمين كل الأمانة للطبيعة ، فلا ترى فيه الخيال الفاسد ولا الأوصاف الميكانيكية ولا المغالطات المنطقية ولا المحاكاة التى يلجأ اليها الضعفاء وأهل الصناعة ، وإنما تجد روحاً جبارة شاملة ، عظيمة الشره ، قوية الطاقة إحساساً وتفكيراً ، طموحة إلى الكمال الفنى ، تستلهم الوجود بأسره كما تستلهم ملكاتها الذاتية ، لا تقنع أبداً بابداعها وإن عظم ذلك الابداع ، وتشعر دائماً بحسرة على ما عجزت عن تبيانه ، متناسية ما أنجبته كأنه لا شىء ، فتعيش دائماً فى قلق وظمأ ولهفة .

(٥) نلمح السخط على البيئـة فى شعر أبى شادى منذ صباه ، ونلمح هذ

الضغط مضاعفٌ الشملة في دواوين شعره الحديث بعد غيابه الطويل في انجلترا ،
ولا عجب في ذلك فقد نشأ شاعرنا من الوجهة الثقافية والنفسية نشأة عالية لم
تصدها المتاعب والهموم العائلية في طفولته وصباه وإن صبغتها بلون قاتم ، واتخذ
خلقه الانسانى صوراً عملية شتى من البر والوطنية والتضحية لازمته منذ نشأته ؛
فكان رجلا ناضجاً وهو في سن الشباب . ولبث يعمل ويضحى بينما يقنع كثيرون
بالثرثرة والدعايات إلى وقتنا هذا ، فيلاقى الوفاء مرة ويلاقى الجحود مرات ، وقد
صدق عليه قول الأحوص في لاميته المشهورة :

متحمِّلٌ ثقلَ الأمور حوى له سبقَ المكارم سابقٌ متمهلُ
وتكون معقلهم إذا لم ينجهم من شرِّ ما يخشون إلاَّ المعقلُ
وأراك تفعل ما تقولُ ، وبعضهم مَذِقُ الحديثِ يقول ما لا يفعلُ

وما زال على هذا الخلق الفذّ النبيل والنشاط العجيب إلى وقتنا الحاضر الذى
يحمل فيه على كتفيه من الأعباء العامة ومن خدمة الثقافة العالية ما تنوء دونه
الجماعات ... والرجل يبذل دم قلبه وعصارة روحه ونور عينيه ورزقه ورزق أولاده
فيما كلف به من مُثل عليا ، فلا يلاقى في معظم الأحوال غير الاساءات والجحود ،
بل والمنّ أيضا من كثيرين ممن غمرتهم ديمقراطيته الأدبية بحبه واحسانه ومؤازرته
الجمة ، فلم يَعنهم من كل هذا إلا أن يترعرعوا بفضل رعايته ، وإلا أن يصعدوا
على أكتافه ثم يعضوا اليد الكريمة التى خلقتهم من لا شىء ، أو التى أخرجتهم
من الظلمات إلى النور ! . . . ولا أتردد في أن أقول غير مدافَع إن أبا شادى

الرجل الانسانى والمثالى الشاعر هو رجل التضحية المنقطع النظير فى هذا البلد الذى كثيراً ما اعتز فيه المهرجون وأدباء المقاهى . ولم يحاربه ولن يحاربه الا المخدوعون وأهل الأراجيف والأدعياء ، وحيويته العملية هى حيوية شعره الخالد ، وشكواه من البيئة هى شكوى الطموح الغبين الذى مهما شكا فلن يعرف الحقد سبيلاً إلى قلبه الطاهر ، ولن تنال الأحداث مثقال ذرة من عزمه الفولاذى ولا من نفسه الوديعة القاهرة .

* * *

هذه هى الصفات النفسية البارزة التى تألف وما يزال يتألف منها شعر أبى شادى ، والتى نحسها فى شعر صباه كما نحسها فى شعر شبابه وكهولته .

وشاعرنا واسع الاطلاع والتجاريب ، بعيد الجراءة ، كاره للتقاليد الجامدة وإن لم يكن هو من المتجردين ، وكل هذا ملموح فى غاياته الشعرية وفى أساليبه. وإذا استثنينا زفراته وصرخاته المتكررة فى وجه البيئة الجاحدة العاقة ، فاننا لا نجد أبا شادى من يعبأ بعد ذلك بالناس إلا من ناحيتين : الناحية المثالية التى يتطلع اليها تطلع الأنبياء للتسامى بالانسانية ، والناحية الفنية المحضة من اتخاذهم مادة كبقية مواد الطبيعة لشعره الحى ؟

محمد عبد الغفور

شعر الديوان

أنداء الفجر

مِنْ دُموعِ النجومِ، مِنْ سَهَرِ العا ... شقِ صِيغَتْ ومِنْ رجاءِ الحياةِ
في حنانٍ ورقّةٍ وهي لا تَمْـ ... ـلِكُ مِنْ عُمْرِها سوى لحظاتِ
في ثُغورِ الأزهارِ، في أُفُقِ العُشْـ ... ـبِ، وفوقَ الغصونِ تحيا وتفنى
وهبتْ حُسْنَها الضحيّةَ للشمـ ... ـسِ كأنّ الفناءَ للشمسِ أغنى
ويعودُ الفجرُ الوفيُّ بها بَعْـ ... ـثاً ولكنْ تعودُ غضّي الضحيّه
هي مِلْكٌ لنا حياةً وموتاً ... وهي بالرُّوحِ صورةُ الأبديّه

الحب والأمل

(نظمها الشاعر وهو عليل)

وفَى الربيعُ فحيِّ الحبَّ والأملا
وسائلِ الذكرَ إن كان الفؤادُ سلا
واحفظْ حديثَ الغواني في أزاهرِهِ
واحرصْ على النفسِ أن يُدنى لها الأجلا

مِنْ كلِّ هيفاءَ إنْ ماستْ وإنْ نظرتْ
لم تتركْ القلبَ إلَّا حائراً وَجِلا
رنتْ إليَّ بلحظٍ ناطقٍ لَبِقٍ
والسِّحْرُ إنْ عزَّ لا أبغي له بَدَلا
يا رائقَ الشِّعْرِ هل بلَّغْتَنا نبأً
عن حالِ مَنْ كانَ لولا العهدُ مُرْتَحِلا (١)
يخطو الى الموتِ والآلامُ تلفتُه
الى العهودِ فينْثَني جازعاً خَجِلا
ليتَ الوفيَّ الذي تُنْسَى مُرُوءَتُهُ
ما عاهدَ البدرَ أنْ يرعاه ممتثلا
إنْ عاشَ كانتْ على التسهيدِ نصرتُه
أوماتَ أزجى المُنَى مِنْ قبرهِ رُسُلا

(١) راحلا من هذا العالم . يشير إلى مرض سابق .

لا يستقرُّ له رأىٌ على سبب

وربَّ صوتٍ ثنىً (١) مِن همِّه وسلا

سهلٌ لديه التأسِّى عن تَدامسه

يومَ اللقاء ، فأمَّا فى الوداع فلا !

رأى النعيمَ هموماً فى صبابته

وقربَ الحسنُ مثواه له خللا

ما أجزعَ الصبَّ يُبكيه متيمُهُ

مِنَ الجمالِ ، وما أهناه لو وصلا

* * *

ودّعتُ نُعمى ، وهى كلُّهُ أملٌ

يا ربَّ لحظٍ ولفظٍ فى الهوى قتلا

---

(١) ثنى : طوى .

سرتْ كحلمٍ يجاريه الدلالُ فلا

نمّتْ عليهِ ، ولا أخفتْ له سبلاَ

وداعبتْني بصوتٍ خافتٍ وبكتْ

وقرّبتْني وقالتْ حسبُنا جدلاَ !

الدّهر فرّقنا ، والدّهر ألّفنا

فانسَ الذنوبَ ، ولا تعتبْ لما فعلاَ

الكون زاهٍ فشبّ ، والظلام سنًا

والنورُ كنزُ معانٍ تُبهج المقلاَ

فاجلُ القريضَ وحدّث طائراً غرِداً

وادْعُ النّسيمَ ولحّنْ بعده زجلاَ

فسرتُ في الروضِ من فرطِ الهوى ثملاً

مثل النّسيم بدا منْ رقّةٍ ثملاَ

والطيرُ دانٍ فلمّا جئتهُ خطرتْ
فيه الظنونُ فخلّى إلفَهُ وعلا

واللهِ لستُ الذي يرضى الصيادَ له
هوىً مخافةَ ، ولكنْ لستُ مَنْ عذلا

يا طيرُ آلمتَ نفسي — كلّنا دنفٌ
ما كنتَ باعدتني لو كنتَ مَن عدلا

ويا زهوراً كساها مِنْ مدامعه
هذا الغمامُ عقوداً نضرةً وحُلي

ويا شُعاعاً سُحِرْنا منْ تألّقه
يبكي ويلعب بسّاماً ومقتتلا

ويا نجوماً توافينا وما برحتْ
تُفشي حديثَ الدُّجى، لا تعرفُ الخجلا !

وياأدباً جلسنا في بدائعه
يأبى علينا الهوى أن نترك الغزلا

وياملاكاً يحيينا وما قذفت
منه اللحاظ سهاماً ... ليته غفلا

ويازماناً نعمنا من نضارته
والأنس وقف عليه دام أم أفلا

ويا ربوعاً وقفنا في معابدها
أسرى الجمال ، نزف الحب والأملا

لا قلتُ معنًى يروق الشعرَ جوهرُه
لو أن بعض نسيمي من هواك خلا !

حياتان

أتى (الطبيعة) ! في نجواكِ إسعادى
وفي ابتعادى أعانى دهرىَ العادى

وفي حمى أخوتي من كلّ طائرةٍ
وكلّ نبتٍ نبيلٍ وحشِك الهادى

ما بالها هي صفوي وحدها فإذا
رجعتُ للناس لم أظفر بإسعادِ ؟

كأنما الناسُ أعداءٌ : فبعضُهمو
حربٌ لبعضٍ وحُسّادٌ لحسّادِ !

حظ النابغين

فؤادى برغم الحادثاتِ كبيرُ   وطرفي وإنْ عزّ العفافُ كسيرُ
تلينُ لى الأيامُ في كلّ شدةٍ   ولو أنَّ جُلّ النابغين أسيرُ

سلخت من الأعوام بضعاً وعشرةً ... أقيم على دين العلى وأسيرُ
وفي النفسِ حاجاتٌ وفي القلبِ لوعةٌ ... على أنّ كلّي همةٌ ومريرُ (١)
وما انقطعت أسبابُ أنسٍ ونعمةٍ ... ولكنّ حظّ النابغينَ عسيرُ !

التبرم

يا ربِّ ! كيف خلقتني متبرّماً ... بالناسِ حين وددتُ هذا الناسَ
أتراكَ أنتَ مللتني ، وكأنّما ... قد عشتَ في ندمٍ وعشتَ تُواسي !؟

الألوهية

ملكتَ قلباً عليلاً ... جنى الغرامُ عليهِ
فراقبِ اللهَ فيمن ... فؤادُهُ في يديهِ (٢)

---

(١) المرير : العزم (٢) أي يقدمه إليك

وسائلُ اللحظَ عمّن يذوبُ شوقاً إليهِ
وسائغُ المجدَ يوماً فأنتَ ربٌّ لديهِ !

الشاعر المصور

(أصلح الشاعر براعته صورة حبيبته التي لم يحسن المصوّر إخراجها)

كذبَ الضياءُ على المصوّرِ مرّةً أخفى بها المشهودَ مِنْ آياتِها
فوضعتُ في كفّي يراعةَ عاشقٍ كان البيانُ يجولُ في لفتاتِها
ونقشتُ تأثيرَ العيونِ لأنّني أدرى بوقعِ السّحرِ مِنْ نظراتِها !

قوس قزح

ملهى السماء يرشّنا بغديرِهِ والماءُ ذوبُ أشعّةٍ وأغاني
والسّحبُ تلعبُ فيه لعبةَ صاعدٍ أو هابطٍ دَرَجاً مِنَ الألوانِ !

على صفحة المـاء

يشقّ القاربُ المزهوُّ مثلي طريقاً في المياهِ مع ابتهاجي
فيتكسّرُ صفحةً للماءِ راقتْ ونسمعُ صوتَ تكسيرِ الزُّجاجِ!

الى سجين القلم

(محمد فريد بك)

مَنْ كان يدركُ في الوجودِ هواكا أسفاً عليه اذا بكى وحاكا
لستَ الذى يجدُ الحياةَ بغفلةٍ ويسافُ فى بثِّ اليقينِ حِراكا
نفسٌ لديها المجدُ خدمةُ قومها تستعذبُ الآلامَ والإنهاكا
تشقى وتضرعُ أنْ تموتَ على هدًى لا ترهبُ الأغلالَ والأشراكا
حجبوا سناكَ عن العيونِ وما دروْا أنّ القلوبَ خلالهنّ سناكا
أكرمتَ نفسكَ هادياً ومفادياً شعباً يقيم على الدوام فِدَاكا

والحرُّ أَوْلى أنْ يجود بنفسه — من أنْ يرومَ عن الصواب فكاكا

سيّانِ كنتَ بنعمةٍ أو نقمةٍ — ما دمتَ ترضى بالجهاد حياكا

سيّانِ كنتَ مقرّباً أو مبعداً — ما دام حربُ العابثين مُناكا

وكفاكَ فخراً أنْ تناضل دولةً — كم أرهقتْ من مصلحين سواكا

والعمر ساعاتٌ يطيب أمرُّها — لو أنّ في حسم الضلالِ هلاكا

عهد الصبابة

خطرتْ فمكّنتِ الهوى تمكينا — وشدتْ فرجّعتِ القلوبُ رنينا

نزعتْ برقّتها الشعورَ فأشفقتْ — وبكتْ فكان أنينها التأبينا !

تخشى الملامةَ في الغرام اذا عفتْ — خفقتْ وكنتُ على الشقاءِ أمينا

عوّدتُ مرَّ العيشِ حتى لم أبتْ — إلاّ بصيراً بالهمومِ رزينا

ما ينفع الصبَّ الكئيبَ من الجوى — حتى يحنَّ الى البكاء حنينا ؟!

أسفي على عهد الصبابة لم يكن … إلاّ شعاعاً كاذباً مظنونا !
أسفي عليه وقد فقدتُ شبابَهُ … ووهبتُ فيه فؤاديَ المغبونا
وظللتُ محزوناً أُكفكف أدمعي … أملاً ، وعشتُ متيَّماً مفتونا
متصدّعاً من لوعةٍ ، متراجعاً … من هيبةٍ ، مستقفراً ، مسجونا
يا حسرةَ القلبِ الضعيفِ إذا رجا … منْ لا يزالُ على الوفيِّ ضنينا !

غدر الجمـــال

بسمتْ فما ضحكتْ وما عبثتْ … إلاّ بمهجةِ صبِّها العاني
ورنَتْ فما أحيتْ وما قتلتْ … إلاّ الشوقَ لطرفِها الراني
اللهُ في حُسنٍ يغـــيّرنا … مِنْ لحظِها المتخشّعِ الجاني !

بعد الفراق

وَيومٍ أثار البينُ كامنَ لوعتي
وأغرقتُ في شكوى تخففُ من همي (١)

نفضتُ الكرى وارتحتُ للبثّ بعد ما
تهالكتُ ما بين الصبابةِ والسقمِ

يكاد يكون الحبُّ ديناً أعزُّه
وهذا الشقاءُ العذبُ مُنتَزَعي همّي (٢)

ولكن يهون البؤس في كل لحظةٍ
إذا زاد حفظُ العهد غماً على غمّي

نزحتُ عيوفاً عن بلادٍ أحبها
تساق بها الأحرارُ للخسفِ والضيمِ

---

(١) حزني (٢) اهتمامي

أقمتُ بها عمراً على الوجد صابراً

وخلّفتها بين التلفّت والألمّ

ذكرتُ بها بدراً ضللنا لبعده

فأرسلت توديع الفؤاد على اليمّ

سلامٌ على حسنٍ دفنّا سهامه

بأضلعنا بين التكتّم والنمّ

سلامٌ وفي نفسي شجونٌ كثيرةٌ

تفيض لدى التذكار في مدمعي الجمّ

تحمّلتُ قلباً دام رهنَ ودادهم

وما زال مملوكاً على الطّوع والرّغم !

الطب الحائر

نظر الطبيبُ إلى نظرةَ ناقدٍ
أعياه ما تكمنُ عليَّ ودوائي

والطبُّ يقصرُ عن شفاءِ مسهّدٍ
ألِفَ الأسى لتسفُّلِ الأهواءِ

ما كلُّ بأسٍ في الجسوم بصحّةٍ
أو كلُّ وهنٍ للجسومِ بداءِ

والعيشُ عيشُ حقائقٍ ودقائقٍ
والموتُ موتُ سلامةِ الآراءِ

نفسي محرّكها الهموم اذا بدتْ
مكنونةً في أنفسِ الضعفاءِ

والناسُ في هذى الحياة غنيهمْ
قد يستطيبُ تحرُّقَ التُّعساءِ

أَينَ العقولُ وأينَ أربابُ النُّهى ؟

أَينَ الشعورُ وحكمةُ الرُّحماء

في القلبِ هَمٌّ لا أُجلُّ بغيرِه

والمرءُ صورةُ حِسِّه المترائي

دمعة على قبر

(قيلت في حسناء انتحرت يأساً لفقد عزيز لديها)

مودِّعةَ الأيامِ والعمرُ شقوةٌ

عليكِ سلامُ الحبِّ في القربِ والهجرِ

فزعتِ من الدار التي طال همُّها

وبِنْتِ ، وهذا البينُ أقربُ للغدرِ

نفوسٌ على الوجدِ الذى فيكِ كلّه

تقلّبُ بين الموتِ واليأسِ والصبرِ

تلمسُ في الأحزان سلوى ، وهكذا
يعيش شقيُّ العمر في السقم والدُّ

أميطي لثاماً أسدله الموتُ تُشرقي
حناناً ... عساه الآن يطفئُ من جمري

حرامٌ على قلبٍ عرفنا كمالَه
يردُّ رجاه الحيِّ للترب والقبرِ

حرامٌ على شمسٍ أضاءت بطهرها
تغيبُ ونحن اليومَ أحوجُ للطهرِ

حرامٌ على روضٍ نمونا بجانبه
يموتُ بلا ذنبٍ جنينا ولا عذرِ

أكان الرَّدى حلواً لفقد فقدته
فأحببته حبّاً وإنْ كنتِ لم تدْري

وخلّفتِ آمالاً على العُمْرِ لم تُحَلْ
وكنتُ أظنُّ العمرَ يُخلَفُ بالبِشْرِ ؟!

فيا دهرُ ما أقساكَ ! للبأسِ غايةٌ
وأنتَ تخالُ اللينَ يُعقِبُ بالخُسْرِ

حَنانًا ورفقًا بالأُلى غابَ أُنسُهم
وشتّتَهُ فقدُ الملاحةِ والبِرِّ

دموعي وإن قلّتْ ـ وفي الدمعِ راحةٌ ـ
نداءُ شجونٍ يزدحمنَ على صدري !

* * *

وأنتِ أباسًا من الله لم تكن
لتذكرَ إلاّ على الطُهْرِ والبِشْرِ

ذكرتُكِ مُبتكيًا شبابٌ خذلتُه
وحسنٌ حواهُ النعشُ في غيبةِ البدرِ

بخلتِ على الواقفينَ بالعيشِ والردى
ولا بدَّ هذا الجمعُ يتبعُ في الإثرِ
فلا تهزئي من عثرةٍ هاجها الأسى
فما كلُّ دمعٍ سالَ عن ذلةٍ يجري
ولا تضحكي من دارِ جهلٍ ونقمةٍ
وأوحي الى الأحياءِ عن مخبأ الفجرِ
فما البؤسُ كلُّ البؤسِ في الفضلِ والهدى
وما الحظُّ كلُّ الحظِّ في الشرِّ والمكرِ
وليسَ جزاءُ الميتِ بالحيّ يُرتجى
وكيفَ وكلُّ الناسِ في حيرةِ السفْرِ
فقارئكِ في الدنيا عفافٌ عبدْتِه
ونبلٌ رواهُ النبلُ في ذكركِ العطرِ

إذا قلتُ لم أنطق عن الزيغ والهوى
وحسبكِ أنّي لا أرخّص من شعري
جمالكِ في نفسي ، وذكركِ في فمي
وشخصكِ في عيني مقيمٌ وفي فكري

الدنيا

لمستُ قلبي بكفٍّ مسّها وجلٌ
من الخفوق فلم أعرفْ له سببًا
إنْ كان همّي من الدُنيا وفتنتها
عمّ الهوانُ فما بات الشقا عجبًا

الراحل المقيم

(قيلت فى جنازة المرحوم محمود عبد الغفار بك
النائب الوطنى الكبير والعضو بمجلس المعارف الأعلى)

ما ذا تؤمّل من رحيمٍ صامتٍ
والموتُ حقٌّ والمؤمّلُ راحلُ ؟
يبكى عليه الناشئون وما بكوْا
جسداً يشيّعهُ الجبانُ الغافلُ
والذكرُ يفقده الخؤونُ لقومهِ
والحرُّ يرفعهُ الشعورُ الكافلُ
والعقلُ أسخفُ ما يكون مؤلّهاً
بأساً يعزّ بهِ الذليلُ السافلُ
غضّوا العيونَ فما الرجالُ بكثرةٍ
وابكوا فقد ذهبَ الحكيمُ العاملُ

وأصغوا إلى صوتٍ تردّدَ داوياً :
إنّ الحياة تمازجٌ وجلائلُ
فالموتُ أصدقُ ناطقٍ عن عبرةٍ
والفضلُ يعرفه الأبيُّ الفاضلُ
والخلدُ أقربُ ما يكون لو أنّما
تُهدَى إليه رواتبٌ ومنازلُ !

شفيعي

شفيعي لدى الحسن الذي لاح سِرُّهُ
بعيداً وما أدريه في لحظةِ القُربِ
خيالٌ أطال الحبُّ مثواه آمناً
بنفسي وصفوُ العيشِ في سكرةِ الحبِّ

إذا كان لا يَرثي لضعفي وشقوتي

فاني برغم «العهد» أشكو الى ربّي

أرومُ النوى — والبعدُ في ذكره جوى —

وهيهات بعد البين يُسعدني قلبي

ومَنْ كان لا يُحييه سخطٌ ولا رضىً

فكيف يقضّي العيش في حيرةِ اللبّ ؟!

عيش الحر

قليلٌ على الأحزان ما انهدَّ مِنْ جسمي

اذا كان عيشُ الحُرِّ أشبهَ بالإثمْ

بكيتُ وما أبكي على سالفِ الهوى

وحولي الأُلى يبكون مِنْ خشْيةِ الفهْمِ !

يصيحون من خوفٍ على سرّ عيشهم
اذا غابَ نورُ الحسِّ بالحالكِ الجهْمِ

جسومٌ على الإفساد تُبنى رجاتُنا
وتدفعُها الأطماعُ للخسفِ والضيمِ

جسومٌ برغم الزّجر أسرى لعصبةٍ
تحرّكها الغاياتُ في القيدِ والسكمِ

ومَنْ كانَ لا يُرضيهِ إسعادُ قومهِ
أحقُّ بفقدِ الذكرِ لا المدحِ والذمِّ !

تريدون إعزازَ النفوسِ التي هوَتْ
وما يصنعُ المغلوبُ بالسيفِ والسهمِ ؟

تريدون تسخيرَ العقولِ التي سمتْ
وتخشونَ من بأسِ الحقيقةِ والعلمِ

أفيقوا فانّا أمةُ الدّهرِ لم نزلْ
نهشُّ الى الذكرى فكونوا على وجمٍ !

أفيقوا فلسنا اليومَ نقضي على القذى

وردّوا الرزايا من غرورٍ ومن وهمِ

فهيهات تستعلي على الحقّ قوة

وهيهات أن يبقى بناءٌ على ظلمِ

وأقسمُ أنّ الشعبَ لا بدّ يعتلي

وكلُّ فسادٍ أو ضلالٍ الى هدمِ

ولو شاءَ ربُّ الملكِ اسقاطَ أمةٍ

تقدّسه لارتدّ بالخزيِ والغرمِ

فيا مجدَ من يسمو بنفسٍ أبيةٍ

ويا ذلَّ من يرضى عن الذلِّ والهمِّ !

اذا صحّ أنّ الأمسَ ولّى بخيبةٍ

فلا بدّ من فوزِ المجاهدِ في اليومِ !

إلى الصديق الشاعر الرقيق

عبد الحليم حلمي المصري

يا ناشرَ السِّحرِ في يومٍ بكيتُ بهِ
عذَّبتَ خِلاًّ بحكم الحبِّ لم يَنَمِ
ما كانَ ضرَّكَ لو أمهلْتَنا زمناً
فرقّةُ الشعرِ تُحيي ميتَ الألمِ ؟
مِنَ البيانِ شفاءُ النفسِ سالبةً
وما عرفتُ شفاءَ الصبِّ في القلمِ
يهفو الجمالُ لشعرٍ قلتَ أعذبَه
ويبسمُ الزهرُ في سُكرٍ وفي حُلُمِ
وربَّ قلبٍ — لمثلي روحُه فتنٌ
يحيا الجمالُ بها — ناجٍ مِنَ العدمِ

أحنو عليه وأتلوه كأنّ به
وعدَ الحبيبِ ، وأدنى لفظَه لفمى !

فما عبستُ قليلاً فى بدايته
إلاّ طربتُ وولّى بعدَها نَدَمى

وأقدرُ الناسِ يُبكيهمْ ويُفرحهمْ
مِنْ رُوحهِ الحيّ فى شعرٍ وفى نَغَمِ

المعنى الأقدس

حبيبتى ! أنتِ لى معنًى أُجلّهُ
فوقَ المعانى التى تُحْكَى بتعبيرى

معنًى تقدّسَ فى طهرٍ وفى ألَقٍ
كالنورِ ، لكنْ تَسامَى عن سَنى النُّورِ

متى أظلُّ سنينَ العمرِ أُنشدُهُ
ولستُ أعرفُ منه غيرَ تقصيري
وكلُّ مغزاهُ أن ألقاكِ في شغفي
كلاهما في مَداه غيرُ محصورِ !

* * *

رضيتُ هذا الصِّبا قربانَ آونةٍ
يجيبُ فكركِ فيها كلَّ تفكيري
ما دمتِ نائيةً عني ففي طربي
همٌّ ، وفي مرحي شتّى الأعاصيرِ !

بحر الأماني

حمدتُ مِنَ الصِّبا بحرَ الأماني ... ففيـــــهِ سفينتي وبهِ أماني
ولولاهُ ارتطمتُ بكلِّ صخرٍ ... فكم في العيشِ مِنْ نُوَبِ الزّمانِ

نشأتُ على الدموعِ غذاءَ روحي فدانَ إلى نواعمِها كياني
فصرتُ إذا ابتسمتُ رأيتُ دمعي هو البسماتُ في صُوَرِ المعاني

* * *

أزينبُ ! إنْ حييتُ فما حياتي سواكِ ، وما عداها الآنَ فاني
ترى هل بعضُ أشواقي يُرَجّى لديكِ ، أم الطفولةُ لا تُعاني ؟!
كلانا في الهوى طِفلٌ ، ولكنْ أنا الطفلُ الغبينُ ، أنا المُعاني
ويا بحرَ الأماني أنتَ عوني ولو غرقَ الهوى بينَ الأماني !

فؤادي

تشجّعْ في المصائبِ يا فؤادي وكنْ بصلابةِ الحجرِ الكريمِ
ألستَ كجوهرٍ في طيِّ جسمي خفيٍّ لا يُعرِّفُ للئيمِ ؟
اذا الأحداثُ عضّتْ فيكَ فاكسرْ نيوباً لن تنالَ من العظيمِ

ولا تكُ في الأسى لحماً ورخواً فتدمى بالكلوم وبالكلوم
فؤادي ما عددتك بعض جسمي فما أصل القلوب من الجسوم
ولكن نفحةٌ طافتْ ووافتْ على خفقِ الشعاعِ من النجوم
فهبْكَ من النجوم شواظُ نارٍ وفيكَ تدفقُ النورِ العميم
تلوذُ بك الحياةُ وأنت منها بمنزلةِ اليتيمِ من اليتيم
فصاحبها مصاحبةَ المفدّى ولازمها ملازمة الحكيم
ولا تجزعْ على دنيا تُساوي نفوسَ البهمِ بالحرِّ الصميم
ففيها تشتكيه نعيمُ يأسٍ وبعضُ اليأسِ من صورِ النعيم!

أول الشهداء

لا تندبوا هذا الشهيدَ فانه ميراثُ أجيالٍ وفخرُ قرونِ
ذهب الضحيةَ للحياةِ بشعبهِ متنزهاً عن مُشْبِهٍ وقرينِ!

إلى صديقي الشاعر المجيد

علي الغاياتي (*)

رددتُ شعرك مطرباً وعليلاً   ولكم أردُّ من الجمال قتيلا

صدحَ الشعورُ به فشاقَ تهافتي   وحلا الأنينُ به فكان قليلا

قبّلتُه ووعيتُه فوجدتُه   عذباً بآمالِ الأبيِّ كفيلا

واذا المهيبُ ترقرقتْ آياتُه   وجد النداءُ الى القلوبِ سبيلا

قلمٌ إذا أجرى الوفاءُ دموعَه   أجرى البيانَ مهذّباً وصقيلا

أنا من معانٍ نضرةٍ متمايلٌ   جذلاً ، وأعشقُ ذلك التمثيلا

واذا البيانُ سمتْ به حسناتُه   طُبِعَ الجلالُ به فماش جليلا

فاربأ بشعرك أن يُذالَ ، ولا تقلْ   الاّ لتنظمَ للهدى اكليلا

إنّ اليراعَ وإن تدفّقَ سحرُه   يبدو بأيدي العابثين ضئيلا

(*) أرسلت إليه لمناسبة ظهور ديوانه (وطنيتي) ، وقد صودر فيما بعد .

فاذكر لنا قِيَمَ الرجال وقلْ لنا حرّ المقالِ وأنت تُرضي (النّبلا)
حَسْبُ العظيمِ جلالةٌ وسعادةً أن لا يرومَ عن الصوابِ بديلا

❖❖❖

أوهام . . .

غرامُكَ لا عذلٌ عليه ولا رَدُّ

فما للشجى حدٌّ ، وما للهوى حدُّ

بيانُك غلاَّبٌ ، وعذرُكَ مُفحِمٌ

ولحظُكَ بسّامٌ ، وقلبُكَ متقدُ

يبيت عليلاً خافت النبض متعباً

يئنُّ ، فلو أُصغي الفؤادُ لم يئدُ

الى العينِ ما يُحييك من خطرةٍ حلت

وللقلبِ داءٌ فيكَ يَسري ويَشتدُّ

وَلَوْلَا اللِّقَا مَا كُنْتَ جَذْلَانَ عَابِساً
وَلَوْلَا الْجَفَا مَا كُنْتَ تَبْكِي وَتَحْتَدُّ

حَيَاتُكَ لُغْزٌ ، وَالْهَوَى كُلُّهُ جَوًى
يَهُونُ ، فَلَا غَمٌّ لَدَيْكَ وَلَا سَعْدُ

فَيَا لِشَبَابٍ فِيكَ لَمْ تُنْسِهِ النَّوَى
وَيَا لِجَلَالٍ مِثْلِكَ مَا فَاتَهُ الصَّدُّ

تَرَكْتَ لِحُكْمِ الْحُسْنِ نَفْساً عَزِيزَةً
وَأَيُّ عَظِيمِ النَّفْسِ فِي شَرْعِهِ عَبْدُ

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ دَفْعِكَ السُّقْمَ وَالْأَسَى
فَأَنْتَ عَلَى الْحَالَيْنِ نَفْيٌ وَتَنْهِيدُ

وَرُبَّ صَفَاءٍ عَزَّ فِي مَذْهَبِي عَنَاً
وَرُبَّ شَقَاءٍ دَامَ فِي مَذْهَبِي رَغْدُ

نَعِيمُ الْفَتَى فِيمَا يَرَى الْأُنْسَ حَوْلَهُ
وَهَمُّ الْفَتَى فِيمَا يُخَالُ بِهِ الْوَجْدُ

حول تمثال مصطفى كامل

وَدّعْ القلبَ بين مُضنًى وخالِ　　وتناسَ الأسى وهمَّ الليالى

وانظرِ العقلَ ناطقًا منْ جمادٍ　　وارقبْ المجدَ صادقًا فى خيالِ

نظراتٌ على الهوى باقياتٌ　　تدعُ الحرَّ فى إسارِ المعالى

وشبابٌ ما زال تصويرُهُ الحقُّ (م) منارَ　　الشعورِ والإجلالِ

وحياةٌ ما زال تذكارُهَا المذْ　　بُ مقرَّ الحياةِ والآمالِ

يا أميرَ النفوس هل ينقضي العمـ　　ـرُ وركنُ الهدى حليفُ الزوال؟!

نحن أسرى على الحياةِ وإنْ جلّـ　　ـتْ وأنت العظيمُ في كلِّ حالِ

* * *

لك غالٍ من الهوى غيرُ بالٍ　　لوفاءٍ على المدى غيرِ بالِ

صمتُكَ اليومَ مثلُ صمتِكَ بالأمـ　　ـسِ مهيبٌ لمخلَدِ الأعمالِ

ضجعةُ الموتِ رقدةُ السهدِ والوجـ　　ـدِ لقلبٍ على الردى غيرِ خالِ

ثُمّ حليفَ الجلالِ في حُفرةِ القبـ ـرِ كما كنتَ يا حليفَ الجلالِ

واذّكرْ مصرَ وارفعِ الصوتَ والذكـ ـرَ ، كما شئتَ يا فقيدَ المعالي

تخطبُ الدهرَ من مَبيتِك في الخا ـقِ وتأتي بأصدقِ الأمثالِ

وتهزّ العقولَ للعزمِ والعز ـمِ إذا أخفقتْ فحولُ المقالِ

وقفةُ الشعبِ عند تمثالكَ اليو ـمَ فخارٌ له وللتمـــثالِ

آهِ! كم يخطئُ المضلّلُ في الخلـ ـدِ وكم يزدري بحسنِ الفعالِ

إنّ مجدَ الإنسانِ في خدمةِ الإنسانِ ، لا فرقَ بين دانٍ وعالِ

خافقاتٌ لك القلوبُ من الحبِّ (م) وإنْ لم تُثِبْ لبأسٍ ومالِ

واهباتٌ لك الحياةَ على المو ـتِ ، وإنْ لم تكنْ قرينَ الزوالِ

يا كبيرَ اليقينِ في قوّةِ الحقِّ (م) ويا بانيـــًا قلوبَ الرجالِ

يا كثيرَ الإباءِ في دولةِ البغـ ـيِ ، ويا ناسفًا صُروحَ الضلالِ

أُمّةٌ تجعلُ الزمانَ بماضيـ ـكَ وترنو إليك حُسنَ المآلِ

وتُحيّي خيالَكَ الليلَ والفجـ ـرَ بدمعٍ على الهوى فيكَ غالِ

* * *

أيها الصانعُ المصوِّرُ إجلالَ أمةٍ — تعبدُ الهُدَى — في جلالِ
كيف وُفِّقتَ بين عهدٍ وعهديْـ ـنِ وما بين وصفِ تلك الخلالِ ؟
صنعةٌ تخجلُ البيانَ من الحسـ ـن وتُزْهَى عن كلِّ سحرٍ حلالِ
صورةٌ تفتن المفكِّرَ مبهو تاً وعبداً لصمتِ هذا الجمالِ
ثِقْ بشكرِ القلوبِ والفضلِ والجو دِ ، وتِهْ فاخراً بذاك الكمالِ
ليس بدعاً إذا حلفتَ بما أتـ ـقنْتَ صدقاً واختلتَ أيَّ اختيالِ
ولك اسمٌ يصونهُ أثرُ العلـ ـمِ ورسمٌ بنضرةِ المجدِ حالي

أنفاس الخزامى

أيُّ عطرٍ فاق أنفاسَ الخزامى في حنانٍ يملأُ الروحَ سلاما
بنتُ مصرٍ في حياءٍ زهرةٌ وخشوعاً وسلاماً وابتساما

لا يراها غيرُ مَنْ كانت له روحُها أو مَنْ يحاكيها غراما

تجذبُ النحلَ الى أكوابها وهي سكرى ترشفُ الشهدَ المُداما

تتوارى عن عيونٍ لا ترى دقّةَ الحسنِ وأخرى تتسامى

أيها الأنفاسُ طيبي وانشري خطراتِ الحبِّ حتى يتسامى

كم وقفنا في مجالي نشوةٍ عند مرآكِ فتوناً واحتشاما؟

لم نقبّلْ غيرَ معنًى حائمٍ حولنا منكِ عشقناه دواما !

هجر الكريم

(إلى أستاذي خليل مطران)

سل النجمَ كم أودعته الحبَّ من فنِ

فانَّ له من صحةِ القولِ ما يُغني !

ورُبَّ جمادٍ صادقِ الذكرِ مُفصحٍ

وأيُّ حياةٍ لا تحومُ على أفْنٍ ؟

أراقبهُ في كلِّ ليلٍ وعندها
أبثُّ له ما يشتكي السُّهدُ من جفني

وأسأله تبليغَ عني لهاجري
لعلمي أنَّ الحسنَ أطوعُ للحسنِ

وأحسبهُ أشجاكَ في وصفِ حالتي
وهل كان هذا ما يخففُ من حزني؟

أميرَ القوافي! أنتَ في اللبِّ ماثلٌ
وليس بياني عن سناكَ بمستغني

توخيتُ داراً شئتَ أن نلتقي بها
لقاءَ الوفا بالمجدِ والخدنِ بالخدنِ

فلمّا رأيتُ الوعدَ آمالَ حالمٍ
وأسلمني طولُ الترقّبِ للوهنِ

نثرتُ بها مِنْ أدمعي كلَّ درةٍ
وكلّفتُها تبليغَ صدقِ الهوى عنّي!

عالمٌ وعالمٌ

أرسل الاستاذ الجليل حامل لواء النهضة الأدبية خليل مطران الى صاحب هذا الديوان قصيدة ودية رائعة مطلعها :

يا ابنَ أخي بشرتنى مرةً بلقيى السبت ولم تحضرِ
ما دمتَ فى خيرٍ وفى صحةٍ فانسَ الذى تنساه أو فاذكرِ

ومنها :

تحكى سهيلاً قطرةٌ من دمٍ وتكفؤ الذرةُ للمشترى
كلاهما فى نوعه عالمٌ أدقه يدهشُ كالأكبرِ !

فأرسل اليه صاحب الديوان الردَّ الآتى :

يا سيدى العمّ ويا مَن له أدينُ بالحُلوِ وبالمُزْهرِ
ما كنتُ الا بضعةً من هُدًى أهديتَهُ أنتَ الى مشترى
هيهاتَ أن أنسى مواعيدَنا لكن تخالفنا فلم تحضرِ [1] !

---

(١) يريد أخطأ كلانا فى تعيين الموعد فلم نتلاق .

وكيف أنساها وأنت الذي ... لولاه لم أُزهِرْ ولم أُثمِرِ ؟
مقالةُ الصدقِ ، وحسبي غنىً ... مقالةُ الصدقِ وحبُّ السَّري

* * *

يا شاعرَ العصرِ ويا مُرشِدي ... ورافعَ الخُلقِ ويا مُظهِري
نصائحُ الودِّ التي سُطِّرَتْ ... في شعرِكَ الحيِّ جَنَى أسطري
تفترُّ بالإلهامِ وضّاءةً ... كهديِكَ الدائمِ بالمُبهِرِ
حبّبتَ لي الطبَّ كأني به ... كفرتُ بالدنيا ولم أكفرِ
أستصغرُ العالَمَ من عزّةٍ ... بالعلمِ والجهلِ وبالمُنكَرِ !
كأنما العُرفُ وإنكارُهُ ... سيّانِ في الروحِ وفي الجوهرِ
ما زلتُ بالبابِ ولكنني ... كالهاربِ التائهِ في عسكرِ !
والمجهرُ (١) الكاشفُ لا ينثني ... يشوقني وهماً ولا يمتري
أستنبطُ الأحياءَ في نورِهِ ... كأنني مُستنبِطٌ عُنصري !

---

(١) مرادف الميكرسكوب .

كأنى الخلاقُ في دقةٍ ... والعالمُ الأكبرُ في مجهرى (١)

كأنما الانسان في قبضتى ... مستعذبًا حبًّا لدى مخبرى (٢) !

أو أنما تشريحه نفحة ... تحييه بالعلم وإن يقبرِ !

* * *

ما أعجبَ الطبَّ وإلهامَهُ ... للشاعرِ الناثرِ والمجترى

أقصى الخيالاتِ لأثمارهِ ... لاشيء يُجتنبُ العلمُ في المخبرِ !

لوعة الخريف

(١) الى استاذى خليل مطران

شعرى لدى الهمّ الخليـ ... ـلِ صيفُ الهوى فى مدمعى

صيفُ لوعتى حينَ الخريـ ... ـفُ يئنُّ في ألمٍ معى

حين الصبا رهنُ الذبو ... لِ وحينَ قلبى لا يعى

متقطعًا متوجعًا ... فى حلمه المتقطعِ

(١) مجهرى : ميكرسكوبى (٢) المخبر : المعمل العلمى الاختبارى

حُلُمٌ يرِقُّ بهِ الصِّبا فيجِفُّ عندَ المَفْزَعِ

لهفي على الظُّلْمِ الجليـ ـلِ مُضَيَّعًا ومُضَيِّعي !

وعلى الهوى بين المُعا نِدِ والمكابِرِ والدَّعِي !

وعلى الصِّبا يذوي عقا بًا للغرامِ المُبْدِعِ !

❊ ❊ ❊

شِعري لدى الهمِّ الجليـ ـلِ عزاءُ قلبي الموجَعِ

عبَّرَ له عن كلِّ آ لامي ووجدي وأدمُعي

وعُدْ الطيوفَ مِنَ المحـ ـبَّةِ هائمًا في مِسمَعي

عُدْ بين آمالِ الربيـ ـعِ مِنَ الخيالِ الممرِعِ

فهو الكفيلُ بحبِّهِ طبًّا لحرقةِ أضلُعي

أدبي يدينُ إليـ ـهِ بل قلبي وغايةُ مَطمعي

وقوامُ تفكيري الجديـ ـدِ ووثبتي وتدفُّعي

ولديهِ أُغنّمُ الربيـ ـعَ بوحشتي وتفجُّعي

يطوي الفصولَ بسحرهِ فاذا الخريفُ موَدَّعي
واذا الربيعُ أضمه في نشوةِ المستمتعِ
واذا الحبيبُ كأنه ما غاب أو هو مُبدِعي
سحرٌ من العهد القدي م بنغمةِ المترفّعِ
يُحيي الموات من القلو ب بلذّةِ المتبرّعِ

* * *

شتّانَ بين هوًى يجو دُ وبين حُبٍّ يدّعي
شتانَ بين هوًى به مَجْدي وآخر مصرعي!

(٢) رد أستاذي مطران

أزكى تحياتِ الفؤا دِ الى الزكيِّ الأروعِ
أهدى اليَّ قصيدةً كخريدةٍ لم تُفرَعِ
عمرتْ مكانَ الأنسِ عندي من فؤادٍ بلقعِ
حسناءُ بارعةُ المعا ني في نظامٍ أبدعِ

تُجْلَى فتحلَّى أو تفو ـبُ فحليُها في المسمعِ

مَنْ لي بعصرِ الشبا ـبِ وفكرى المتوزَّعِ

فأجيبـ في ردِّ الثنا ـءِ على الأخِ المتبرِّعِ

قصَّرتُ في شأوِ البلا ـغةِ عن تمادي مطمعي

أهلاً بحاملةِ الكتا ـبِ أمينةِ المستودعِ

أهلاً بناقلةِ البديـ ـعِ من الطرازِ الأبدعِ

أهلاً بصادحةٍ شجتْ قلبي وأجرتْ مدمعي

بثَّتْ حكايةَ وجدهِ بأنينها المتقطِّعِ

وشدتْ على توقيعِ سر ـبٍ من حمامٍ سجَّعِ

نغمُ الملائكِ بين تهليـ ـلٍ وبين مرجَّعِ

أحسنتِ تأديةَ البلا ـغِ عن الصفيِّ الألمعي

كوفائهِ ليكنْ وفا ءُ الخدنِ غيرَ مصنَّعِ

وكودِّهِ فليشرعْ الـ ـودُّ النقيُّ المشرَعِ

وكعزمهِ في المجدِ فلْ يكُ عزمُ كلِّ سميذعِ
لا خُلقَ أنزعُ للعلى بجمالِ هذا المنزعِ

المتصرف

(كتبت على صورة أهداها الشاعر الى أحد أوفيائه)

القلبُ لا يرجو دُنُوَّ مآلهِ ما دمتَ أنت مصرِّفاً في حالهِ
كنْ كيف شئتَ مقدِّراً لجلالهِ ونعيمِ مُهجتهِ وحظِّ «خيالهِ»
لو رمتَ أسعدتَ الأسيرَ بأسرِهِ أو شئتَ أذلتَ العزيزَ بآلهِ

الاستشفاء

دعِ الرحيلَ لدارِ الحبِّ والغيدِ واصبرْ على الغيظِ في قاسٍ من البيدِ
فمدمعُ العينِ من حُسنٍ تقرُّ به ولذةُ السمعِ في أسرِ الأغاريدِ
يخلو المهجورُ اذا صحَّ الفؤادُ به عن النسيمِ بتعذيبٍ وتسهيدِ

على قبر الشهيد

وددتك مشتوقاً وزرتك مقبراً ولست على الحالين أبخس من قدري
وقفتُ عليك اليوم وقفة عابدٍ يُحجُّ لآيِ الله يا صاحبَ القبرِ
وطأطأتُ رأساً لم تشأْ خفضهُ آله تخرّ لدى ذكرى مماتك لو تدري
اذا متُّ محروماً مدى النطق بالهدى فيا حسرة الفاني وآهاً على عمري
اذا مسّني من خشيةِ الظلم هزّة فاني على الإحجام أقرب للكفرِ !

وطني ! وطني !

وطني ! وطني ! يا ابنَ الزمّنِ !
أَوَلَمْ تدْرِ سِرَّ الدّهرِ ؟
هيهات يَسودْ باغٍ وحسودْ
فيمَ الأحزابْ والخلفُ خرابْ ؟

حبٌّ ووئامٌ يسرّه الأيامْ .
فاذا ذهبا تركا المطيا !

***

الطائر الجديد

(لمناسبة اجتياز بليريو خليج المانش بنجاح باهر
وانتعاش حركة الطيران)

أيها الانسانُ يا ابنَ الأرض فينا … تشتهى أن تعتلى هذا السديما
لك أن تسموَ ما شئتَ ولكنْ … أصلحْ الأرضَ تجدْ فيها المفاتنْ
قبلَ أن تمضيَ لهواً وتطيرْ … عمّرْ الأرضَ ولا تنسَ المسيرْ
كم خرابٍ شاملٍ فيها تراهْ … أنت تبقيهِ على غيرِ انتباهْ
عمِّرْ الأرضَ تكنْ فيها الٓهْ … انّ هذا وحدَهُ مجدٌ وجاهْ
عمِّرْ الأرضَ وعِش عيشَ أخيكْ … ليس فى الانسانِ عبدٌ ومليكْ
ثم طِرْ ما شئتَ ولتغزُ الجواءْ … ليس للأحلام حدٌّ وانتهاءْ !

مسرح الليل

مسرحَ الليلِ ! أيُّ ملهًى عجيبٍ ... أنتَ تبدو للشاعرِ الفنَّانِ ؟ !
كم مرآءٍ خلقتَها وهي شتّى ... من صدى التناقضِ الفتّانِ
أنتَ ملقى العبّادِ والطهرُ بينا ... أنتَ مجلى التهتّكِ المتفاني
كلُّ راءٍ يرى الذى يشتهيهِ ... ويذوقُ الذى يرى من معانى
والنجومُ التى تطلُّ علينا ... في حنانٍ ورعشةٍ وافتتانِ
بين حُبٍّ لنا كأمٍّ رعتنا ... والتياعٍ كخفقِ قلبِ الجبانِ
حبستْ دمعَها فإنْ بذلته ... فشآبيبُ دمعِها النوراني
شهبٌ تستحيلُ من دمعها الصا ... في الى حُرقةٍ الى صوّانِ
فكأنَّ الأجواءَ للأرضِ آذا ... ها فحاكتْ طبيعةَ الانسانِ !

نبع الصبابة

هذى الأناملُ مَنْ أباحَ لوقعِها ... قلبي سوى عينيكِ يا حسنائى ؟
لولاهما ما كنتُ أفهمُ وقْعَها ... سحراً عُنيتُ كما يُعيدُ رجائى
جُودِي بأنغامِ الحياةِ وجدِّدى ... ما شئتِ إلهاماً على إلهامِ
لغةُ العواطفِ تُستساغُ كأنَّها ... نبعُ الصبابةِ فاضَ بالأنغامِ
أصغيتُ كالطفلِ الرضيعِ لأمِّهِ ... ورشفتُ منكِ بسمعيَ حياتي
ونعمتُ قربكِ في صلاةٍ حرةٍ ... للفنِّ لم تُقْرَنْ بأيِّ صلاةِ !

لِمَ يحجبونك ؟

يا « زينَ » دنياىَ التي ما نالَني ... منها سوى قلقي على حرماني ؟
لِمَ يحجبونكِ ؟ هل أثمتُ بكلِّ ما ... أعطيتُ حسنكِ من جمالِ بياني
هل لى سوى دينِ الطهارةِ ملةٌ ... أو لى سواكِ حِمايَ أو ديّاني ؟
فاذا حُجِبْتِ فمن أخصُّ بمهجتي ؟ ... ولمن أعيشُ ؟ ومَنْ له وجداني ؟

عبادات

ما لعينى كلما ألقاكِ بالفرحةِ تدمعْ ؟

أهي لي الفرحةُ أم خشيةُ حلمٍ يتصدّعْ ؟

لى رجاءٌ ليس يخبو ورجاءٌ ليس يلمعْ

وأنا كالتائهِ العانى الى الاوهامِ أفزعْ

ذاكَ قلبي يا حياتى ! نبئيهِ كيف يصنعْ !

هو فى القربِ بعيدٌ عنكِ يهفو ثم يجزعْ

آهِ كم يجنى حياتى ! آه من شوقٍ مضيّعْ !

كم تلاشت قُبُلاتى في غرامٍ يتورّعْ !

قبلاتى فى امتناعٍ هو بعثٌ لي ومصرعْ

وحياءٌ هو تسليمى بعقلٍ ليس يخضعْ

وعباداتٌ تناهتْ وأبتْ لى كلّ مطمعْ !

موسيق الوجود

(نظمها صاحب الديوان متأثراً بقصيدة للشاعر جبرائيل سيتون)

حدّثوني عن الوجود المغنّي: كلُّ ما فيه صادحٌ يتغنّى
مِن جمادٍ ومِن نباتٍ وأحيا ء ، فليس الغناءُ منهن يَفنى
وعجيبٌ إذا تناءيتِ عني لم أجدْ للغناءِ فيهنّ معنى
واذا ما ظفرتُ منكِ بأنسي صار هذا الوجودُ لحناً وفنّاً !

باقة أنغام

إذا استمعتُ اليكِ فُتِنتُ مِن توقيعكْ
كأنَّ سمعي لديكِ عيني بمجْلَى ربيعكْ
أُصغي إلى هذه الالحانِ زاهيةً كأنها نُخَبُ الأزهارِ للفَنَنِ
فكلُّ لحنٍ له لونٌ يُضيءُ به وجمعُها باقةٌ من زهركِ الفني

وكلُّ لحنٍ له عِطرٌ يبوحُ به ... وانْ تخيّلهُ غيري من الفَنِّ
وأنتِ كوني، وكوني في حقيقته ... جمُّ المعاني التي غابتْ عن الكونِ
إذا استمعتُ اليكِ ... فتنتُ من توقيعكْ
كأنَّ سمعي لديكِ ... عيني تجتلي ربيعكْ

الاكسير

هو ساعةُ الدهرُ يأبى منحها ... الا بتوقيتٍ له وقيودِ
قد عُدتُ يا أملي اليكِ فجدّدي ... عُمري بنفحةِ روحكِ المعبودِ
أُلقاكِ ألقيا خاشعٍ متعبّدٍ ... والقلب يخفقُ للعناقِ سؤولا
فيصدّني هذا الخشوعُ كأنني ... أجدُ العبادةَ أن أعيش خجولا!
ضيّعتُ أحلامي وسنّي هكذا ... في الشوقِ والتعذيبِ والحرمانِ
أنا لا ألومكِ يا حياتي بل أرى ... حظي كحظِّ الحارسِ البستاني

فأنا الأمينُ عليكِ غيرَ معاتبٍ الا معاتبةَ الضميرِ القاسي

فاذا بلحظتك كالغريب فانما أنا وحدي القربانُ دونَ الناسِ

هذا هو الأسبوعُ مرّ وها أنا قد عدتُ قربانًا الى الكرسي

متناولاً في الوهم كأسَ رحيقهِ من صمتِنا المغني عن التعبيرِ !

الخالق الفنان

تباركَ ربي مبدعاً ومصوّرًا لقد خلقَ الآياتِ كالسحرِ للورى

يراها الفتى لكنْ كأنَّ الذي يرى خيالٌ وخلفَ الكونِ كونٌ تسترا !

وما عظّمَ الخلاقَ الا احتجابُهُ فسبحانَهُ يبدو ويخفى مكررًا

وما شاقني في الكونِ الا خفيهُ فان وراءَ الكونِ عقلاً مدبّرًا

يعافُ سُمى الفنّان اعلانَ ذاته ويُعلن عنه الفنُّ أضعافَ ما يُرى

كذلك خلاقُ الوجودِ فانه تحجّبَ واستهوى به عقلَ من درى

فهذا هو الفنُّ الإلهيُّ الذى يرى الفنَّ والفنَّانَ فى النجم والثَّرى
وهذا هو المجلى العجيبُ لمبصرٍ يرى الخالقَ الفنَّانَ عيناً ومُضمَرا

* * *

وكوَّنتِ أنتِ الحبَّ لى عالَماً كما تحجَّبتِ كالخلَّاقِ إذ باعدَ الورَى !

بنات الخريف

هلمِّى ! هلمِّى ! بناتِ الخريفْ !
وطوفى وطوفى بهذا الحفيفْ !
نراكِ بأوهامنا جائله
كباحثةٍ عن تراثٍ فقيدْ
وقد حُرِمتْ منه فى يوم عيدْ
فتمضى بلهفتها سائلهْ !

* * *

نراكِ تطوفين وهي شريدهْ

تهزّين حتى الغصون الوحيدهْ

وتذرين حتّى الرياح التي

تظنين فيها خفايا الجمالْ

وقد صحبتها أيادي الليالْ

فهل تنتهين الى غايةٍ ؟

الساعة

نمنا جميعاً وأنتِ يقظانهْ   وقد غفلنا ولستِ غفلانهْ

بل كلّنا فيه روحُ غفلتهِ   كفيلسوفٍ يخاف إنسانهْ

كم دقّةٍ منكِ جدّ منذرةٍ   فما انتبهنا ودمتِ لهفانهْ !

الوساوس

هل فى الهواء مِن الحديث عجيبٌ   الا عن الفنانِ بين الناسِ ؟!
ما لى أحسُّ بهاتفٍ وبهاتفٍ   وبعوالمٍ شتّى من الاحساسِ ؟!
مُلِئَ الفضاءُ بها وكم فى طيّها   صُوَرٌ من الماضى العزيزِ الثانى
فكأنّما كلٌّ الذى ظفرَ الورى   بالخلدِ بين مشاعرِ الانسانِ !

الطائر الرقيب

رقيبٌ ولكنْ يغنّى لنا   ويُعطى الحديقةَ معنى الغِنَى
لعلَّ الربيع وقد فاتنا   أهابَ به ابريهِ لنا !
تُتابعُهُ في حُبورِ الصِّبا   ونُصغى الى الشّدوِ مُستعذَبا
فيا مرحبًا ثم يا مرحبا   بهذا الرقيبِ وما حبّبا !

ويا طائرى أنتَ يا طائرى بعثتَ الى روحيَ الشاعرِ
وأصغيتَ الشاعرِ الطائرِ فهلاَّ أصغيتَ الى خاطرى ؟
إذنْ لعرفتَ غرامى الدفينْ وما لَجَّ بى من جوًى أو حنينْ
وحُبِّى الذى مثلَ حبِّ الغصونْ تفرَّعَ ، بل مثلَ حبِّ الفنونْ !

وحى المطر

أنا ظامىءٌ والكلُّ حولى ظامىءٌ فتقطَّرى يا سُحْبُ كيف حننتِ
هذى الغصونُ تناولتْ ما خصَّها ولبثتُ فى ظمئى لوحيك أنتِ
تتساقطُ القطراتُ من يدِ زهرةٍ ليدٍ ، لأخرى ، والجميعُ سكارَى
وأنا الوحيدُ فأين أينَ حبيبتى حتى تردَّ جوًى وتطفىءَ نارا ؟
هلا بعثتِ الى دفينِ شعورها برسالةِ الحبِّ الوفىِّ الباكى
فلعلها تأبى وتنشرُ عطفها كالقطرِ فوق الزهرِ والأشواكِ !

القطة اليتيمة

جلستِ قربي كأنّ قربي   عزاءُ احساسكِ اليتيمْ
وكم تألمتُ في حُنوّي   عليكِ في صمتكِ الأليمْ
فقدتِ أمّاً وما فقدنا   لكنّ في عزلتي افتقادْ !
كأنني آكلٌ شبابي   وسائدُ الصمت من حدادْ !
أصبحتُ في وحدتي عزاءً   مذ لم أنله من الجمالْ
قد أسرف الحسنُ كبرياءً   أو برّه يُشبه المُحالْ
فلتغنمي أنتِ من حناني   ما شئتِ يا طفلةَ الغرامْ
فالحبُّ إيمانٌ وأيُّ إيمانِ   والحبُّ كم يتّمَ الأنامْ !

دراسات أدبية

شاعرية أبي شادى

هزت مشاهدُ الفجر من القدم عبقرية الشعراء فتغنى جوت الشاعر الألمانى بلون الفجر الارجوانى، وذكر أثره الجليل على شاعريته فى رواية فوست ، وأرسل الشاعر الانجليزى كوليدج نشيداً ناجى به مظاهر الطبيعة قبل طلوع الشمس فى وادى شامونى ، وأثّر جلال الفجر فى أبى شادى وهو فى صباه فوصف أنداء الفجر بأنها صيغت فى حنان ورقة من دموع النجوم ومن سهر العاشق وأن عمرها لحظات تقضيها فى ثغور الأزهار وفى ألق العشب وفوق الغصون والأشجار:

من دموع النجوم ، من سهر العاشـ ق صيغت ومن رجاء الحياة
فى حنانٍ ورقةٍ وهى لا تمـ لك من عمرها سوى لحظات
فى ثغور الأزهار ، فى ألق العشـ ب ، وفوق الغصون تحيا وتفنى
وهبتْ حسنَها الضحيةَ للشمـ س كأنّ الفتاةَ للشمس أغنى !

وليست هذه الأنداء الا رمزاً لقلب شاعر تأثر بمشهد الفجر الشاعرى فترقرقت من قلبه أنداءٌ على زهرة الشعر فى مملكته المقدسة ، فاذا بديوان بكر وسمه الشاعر (أنداء الفجر) — ديوان تنفسَ الحبّ العفيف الصادق وهتف بجوانى الطبيعة الرائعة ، ورسم خوالج النفس الحالمة الشاعرة وتأملات الزهد الخفية العميقة ، وإذا بنا نتنشق عطر الشاعرية فيه ونلمح وميض العبقرية يخطف بالبصر فى داجٍ من الظلم .

وعجب أي عجب لنزوع هذا الشاعر في سن مبكرة الى انتقاء عناوين شعرية لدواوينه وقصائده ومقطوعاته انتقاء فاتناً يمازج فيه العنصر الشعري بالعنصر الجمالي كما تمازج أضواء القمر الجميلة بموجات النهر الساجية .

وها نحن نلمس العنصر الشعري في ديوان (أنداء الفجر) في مثل مقطوعته « وحي المطر » التي هتف بها الشاعر في أوائل الشتاء جامعاً فيها بين الطبيعة والحب في نفس واحد ، وفي قصيدته « بنات الخريف » يناجي بها روح الخريف مناجاة شعرية قوية . وقصيدة « موسيقى الوجود » يغني فيها بمشاهد الوجود من جماد ونبات . وهذا العنصر الشعري يغمر جميع دواوينه ونذكر بخاصة ديوان (الينبوع) الذي وعى من القصائد الشاعرة « رعشة الحور » و « الأوراق الميتة » و « الورود الحمراء » و « مصر العازفة » و « الأشعة الصادحة » وغيرها ، ونقصد بالعنصر الشعري تلك البيئة التي تنزع بالشاعر الى المرائي والخوالج وتلف قلبه وحواسه في شبه غيبوبة ، وتبتعث شعوره الى أن يهيم في أودية خفية ، وذهنه الى أن يجول في آفاق مجهولة ! فأوراق العشب ، وأنفاس الزهر ، وصمت السكون ، وأحزان القمر ، وظلال السحب ، وأنداء الفجر ، وتوفز الطير ، كلها وأشباهها من مواد الشاعرية ، بينما القصر الجديد ، والطيارة ذات الأزيز ، والخيل الجارية في السباق ، والسيارة الناهبة للأرض ، والآلة الميكانيكية ، والاختراع الحديث ، وكل مظهر من مظاهر الحياة الصناعية ، قد تكون جميلة أيما جمال ، ولكنها لا تبعث بشاعرية ، ولا تتفتح عن خيال ، وما عرف أبو شادي الجمال متجرداً عن الشاعرية ، ولا ترنم في ديوان من دواوينه بمظاهر الجمال البحتة . اسمع اليه يقول

فى قصيدته « حياتان » : حياة الطبيعة التى يجد فيها موضوعاته الشعرية وحياته اليومية التى يتقزز منها ، بيث حنينه للأولى وشجاه من الثانية . . . يقول :

أمى الطبيعة فى نجوالك إسعادى   وفى ابتعادى أعانى دهرى المادى
وفى حمى إخوتى من كل طائرة   وكل نبت نبيل وحيك الهادى

وهـذا النزوع الى المواطن الشعرية أكثر من الجمالية ملحوظ فى الشعراء الحقيقيين أمثال كولريدج الذى ناجى « البلبل » ووردزورث الذى هام بالطبيعة وكيتس الذى آثر الشاعرية على الجمـال فتغنى بالزهر وهتف بالطير ولم يهتم بمرأى أبدعته يد الانسان .

وفيكتور هيجو الذى لم يجاره أحـد فى تنوع موضوعاته لم يهتم بالجمـال المصنوع مثل ما اهتم بالمثابات الشعرية . يقول الفيلسوف الشاب جييو Guyau فى كتابه (فلسفة الفن والجمـال) إن فيكتور هيجو الذى أحاط بكل ضروب الشعر وتحدث فى فنونها المنوعة لم يتغن بكنيسة نوتردام دى بارى ، وكذلك شرب الشاعر الاميركي الجرىء ثورو من الطبيعـة فعاش مع الحيوان والطير والزروع وأحب مواطن الشاعرية لذاتها وابتعـد عن الناس وعما أبدعته أيديهـم من جمال !

وأبلغ العجب أن يندّ أبوشادى عن هذا النزوع الشعرى فى قصيدة واحدة من ديوانه هى «عالم وعالم» فيحدثنا بعظمة وجمال «المجهر» و «المخبر» وآثارهما العالم ، ويحدثنا عن الطب وعجائبه ، وهذه الأدوات العامية الحديثة من المواطن التى ينبو عنها الشعر . يقول :

ما أعجبَ الطبّ وإلهامَه   الشاعرِ الثائرِ والمحترى
أقصى الخيالات لأشعاره   لا شيءُ جنبَ العلم في الخُبرِ !

بيد أني لا أنكر على الشاعر أن يبرز من مثل هذه الأدوات معانيَ شعرية ولكن لا يجعلها هي بالذات موضوع الشعر ، كما فعل أبوشادي في قصيدته « الطب الحائر » التي لم يتحدث فيها عن الطب المجرد لا من قرب ولا من بعد ، ولكنه أبرز من ملابسات الطب فلسفة عميقة ذكية . يقول :

ما كلّ بأسٍ في الجسوم بصحةٍ   أو كلّ وهنٍ للجسوم بداءِ
والعيش عيش حقائق ودقائق   والموتُ موتُ سلامة الآراءِ
نفسي تحرّكها الهمومُ إذا بدتْ   مكنونةً في أنفسِ الضعفاءِ

وقراءةٌ متعمقةٌ في ديوان (أنداء الفجر) تكشف لنا عن روح شعرية مبكرة لشاعر حقيق . وتتألف تلك الروح الشعرية من انفعال ينبض نبض القلب في الجسد ، وعاطفة تسري سريان النسيم اللطيف في الأفق ، وفكر يضيء كشعاعٍ وردىٍّ في ليلٍ بهيمٍ !

سرى الانفعالُ الشعريُّ في قوته في هذا الديوانْ البكر ، ومن آيات ذلك قصائده « عبادات » و « موسيقى الوجود » و «بنات الخريف» وغيرها . اسمع الى الشاعر يقول في قصيدة « عبادات » :

هاكِ قلبي يا حياتي !   نبئيه كيف يصنعْ !
هو في القربِ بعيدٌ   عنكِ يهفو ثم يجزعْ

آهِ كم يُجني حياتي : آهِ من شوقٍ مُضيَّعْ !

ويقول الشاعر في قصيدة « بنات الخريف » يخاطب الريح في انفعال وثابة :

هلمي ! هلمي ! بنات الخريف !

وطوفي وطوفي بهذا الحفيف !

وأبرزُ ما يبهر العين أن هذا الانفعال الشعري اقترن بعاطفة الحبّ غناءً متنوّعاً حتى ليكاد الديوان يتنفس حباً نابضاً ، وأبلغ مثال لاقتران الانفعال بالعاطفة نجده في بعض أبيات جاءت في قصيدة « بحر الأماني » :

أزينبُ ! إن حييتُ فما حياتي سواكِ ، وما عداها الآن فانِ !

كلانا في الهوى طفلٌ ، ولكنْ أنا الطفلُ المُبينُ ، أنا المعاني !

وقوله وهو يصرخ صرخات العاطفة الطاهرة في مقطوعته «لِمَ يحجبونك؟»

لِمَ يحجبونكِ ؟ هل أثمتُ بكلِّ ما أعطيتُ حسنَكِ من جمالِ بياني ؟

هل لي سوى دين الطهارة ملةٌ أو لي سواكِ حمايَ أو دياني ؟

فاذا حُجبتِ فمن أخصُّ بمهجتي ؟ ولمن أعيشُ ؟ ومَنْ له وجداني ؟

وهذه العاطفةُ الطهورةُ مقرونةً بهزّة الانفعال النبيل هي من ميزات كل فن خالد . ونجد ذلك بارزاً في موسيقى بيتهوفن وفي شعر ملتون وفي قصائد تنيسون وكوليردج ، فاذا عبر الشعرُ عن عاطفةٍ حسيةٍ تعبيراً قوياً منفعلا فان هذا أدخل في فنيةِ الشعر لا في سموه الخلقي وخلوده . ومن نماذج الشعر الفني الذي لم يصل

الى المرتبة العالية مقطوعة لعباس محمود العقاد دعاها « حسرة متلفة » يمثل بها القبلة فى انفعال قوى واشتهاء حسى ، يقول :

يا لَهُ من فم ـ يا لها من شفة
يا لشهد بها ـ كدت أن أرشفه
يا لزهر بها ـ كدت أن أقطفه
حلوة ويحها ! ـ غضة مرهفة
حسرتى بعدها ـ حسرة متلفة !

وقد سبقنا شعراء الغرب إلى إبراز قوة انفعالاتهم فى بعض قصائدهم الخالدة، ومن هؤلاء الشعراء من دقّ شعورهم وصفا حتى لتكاد تسمع نبض أعصابهم، ومن هؤلاء نذكر دى موسيه الحساس ، وبودلير الهوائى ، وشيلى العصبى ، وكيتس النابض ، ووليام بليك المنفعل ، ولعل أغنيةَ الأخير « الوردة المريضة » هى من الشعر العبقرى ، وقد وصف حالتها فى انفعالٍ أليمٍ فذكر أن دودةً مجهولةً طارت اليها فى الليل على أجنحة الزوبعة الزائرة ودخلت فى مخدعها الفارح وبيد خفية قتلتها ! وقد استهلها بقوله :

O Rose ! Thou art sick !

وليس من شك فى أن أبا شادى تغلب عليه نزعة التفكير والتأمل فى شعره، وهذه أظهر ما تكون فى دواوينه الجديدة لا فى ديوانه البكر . وأخصّ بالذكر من هذه الدواوين « أطياف الربيع » و « الينبوع » و «أشعة وظلال» . وتبدو

فيه هذه النزعة التفكيرية من صباه الباكر الى يومه الحاضر ، ومن دلائل تفكيره العميق وتأثره الفني قصيدته « أنفاس الخزامى » وقصيدته « الخالق الفنان » . أما قصيدته « أنفاس الخزامى » فهي قصيدة فريدة في طرازها ولم يسبق شاعر من قبل – على ما أظن – الى التفكير في هذه الزهرة والانتباه الى وجودها بهذه المعانى ، ولعل الذى نبهه اليها اشتغاله بالنحل من عهد الفتوة ، وهو بهذا التفكير يحاكى شيلى الذى تنبه الى صوت « القبّرة » و بيرنز الذى تنبه الى جمال زهرات اللؤلؤ في حقول اسكتلندة ، ويحاكي كيتس وكوليردج في في مناجاتهما « البلبل » وفيكتور هيجو في وصفه لزهرة المرغريت الوديعة ! يقول أبو شادى في مطلع هذه القصيدة الفذّة :

أىُّ عطرٍ فاق أنفاسَ الخزامى   في حنانٍ يملأ الروحَ سلاما
لا يراها غيرُ مَن كانت له   روحُها أو مَن يحاكيها غراما !
تجذب النحلَ إلى أكوابها   وهى سكرى ترشف الشهد المداما !

وبودى لو يتم القارىء تلاوتها في الديوان ، ليتبين ما فيها من رائع المعانى ، وبودّى أيضاً لو يرجع القارىء الى قصيدة « الخالق الفنان » فان فيها معانى تتطلب التفكير ، وفيها شعور بالايمان الصوفىّ ، وبودى أيضاً لو يرجع القارىء الى قصيدة « مسرح الليل » فانه سوف يجد فيها أفكاراً عميقة وخيالات قوية جريئة .

وليس من شك في أن بثّ الفكر الأصيل في الشعر من سمات كبار الشعراء البارزين ، وذلك لأن أصالة الشعر لا تأتى الا بالفكر الواسع ، وأصالة التأمل

لا تكون الا بالفكاه لا بالحواس » . يقول جيبو « المفكر الحقيق هو الفنان الحقيق » . فالشعر عند إمرسون كان أفكاراً ، والشعر عند براوننج كان أفكاراً عميقة غامضة تحتاج الى التروّى وتقليب الرأى ، والشعر عند كولريدج ينزع الى التفكير .

استمع مثلا الى قصيدته « ذكريات الحب » التى تطفر بجمال الفكرة وهو يصرخ الى حبيبته صرخات العاطفة فيصفها بأنها فكرة وأنها حلم يذكر فى حلم! يقول :

You stood before me like a thought,
A dream remembered in a dream .
But when these meek eyes first did seem
To tell me, love within you wrought,
O Greta, dear domestic stream .

* * *

ولقد خلع أبوشادى على الروح الشعرية رداء منسجماً مع هذه الروح وملوّناً بلونها دون أن يهتم بتجميل القافيـة ولا بتفخيمها ، وجمع فى هـذا الديوان على الخصوص الى صفاء الفكرة لطف الديباجة ، والى براعة الخيال قوة الأداء ، وهذا مما يرضى نزعات المحافظين والمجددين على السواء ، وأبرز مثال على هذا الشعر الرصين قصيدته « عيش الحر » وهو خطاب حارّ نارىّ موجّه الى مساوىء الاستعمار ، وقد استهلها بقوله :

قليلٌ على الأحزان ما انهدّ من جسمى   اذا كان عيشُ الحرّ أشبه بالإثم

وقصيدته « أنفاس الخزامى » وقد أتينا عليها آنفاً ، وقصيدته « الحب والأمل » ومقطوعته « الاستشفاء » التى تلمس فيها الديباجة البدوية الرصينة وقد استهلها بقوله :

دَعِ الرحيلَ لدار الحبِّ والغيدِ واصبر على القيظِ فى قاسٍ من البيدِ !

وقصيدته الرصينة « دمعة على قبر » تلك التى رثى فيها حسناء انتحرت يأساً لفقد عزيز لديها جاء فيها :

حرامٌ على قلبٍ عرفنا كماله يردُّ رجاءَ الحىِّ الترب والقبرِ
حرامٌ على شمسٍ أضاءت بطهرها تغيبُ ونحن اليوم أحوجُ للطهرِ
حرامٌ على روضٍ نمونا بمائه يجفُّ بلا ذنبٍ جنينا ولا عُذْرِ

ويختم هذا القصيد ببيتى رائع المعنى بارع الأداء يتنفس الاخلاص الصادق ، يقول :

جمالُكِ فى نفسى وذكرُكِ فى فمى وشخصُكِ فى عينى مقيمٌ وفى فكرى !

وهذا الجميع بين صفاء الفكرة وجمال الديباجة وبين براعة الخيال وصدق العاطفة هو سمة كلِّ شعرٍ يشقُّ لنفسه طريق البقاء ويحمل فى ذاته عناصر الحياة ، وقد امتاز شعر الشعراء النابهين بهذه السمة أمثال المتنبى ، وأبى العلاء المعرى ، وشكسبير ، وتنيسون ، والبارودى ، وشوقى ، وحافظ ، فى طائفة من قصائدهم .

وديوان (أنداء الفجر) يضمُّ كثيراً من أمثال هذه القصائد المقفاة الرصينة

ولكن يلاحظ الى جانب هذه القصائد المقفاة نوع جديد من القافية المزدوجة أو شبه الطليقة تظهر نزوع الشاعر الى الطلاقة والى التحرر من عبودية القافية الواحدة ، وهذه الطلاقة تعطى في كثير من الاحايين مسحة جميلة للتعبير الشعري . فانا نرى أن طائفة من قصائد هذا الديوان تعلن الثورة على القافية الواحدة كما يتجلى ذلك من قصيدة «الطائر الجديد» التي أتى في كل بيت منها بقافية مغايرة ، وقصيدته « بنات الخريف » التي نوّع القافية فيها ، ورأينا أباشادي يلجأ أيضاً الى القافية المزدوجة في كثير من قصائده التي نذكر منها « وحي المطر » و « القطة اليتيمة » و « الوساوس » و « الطائر الرقيب » و « الاكسير » و « أنداء الفجر » . وهذا الميل الى الطلاقة والتحرر من عبودية القافية في سن باكرة يحمل بذور ثورته التي تجلت اليوم في شعره المرسل ، ذلك الشعر الذي كان هو وعبدالرحمن شكري من روّاده ، وتجلت أيضاً في شعره الحرّ الذي كان هو أول من أدخله في الشعر العربيّ ، وهذا الميل الى التحرر من القافية هو الذي أثار هائجة المحافظين فزعموا ان هذا التحرر يذهب الموسيقى ويضيع النغم . وهذا القول صادر عن جهل بأبسط المعارف الموسيقية : فان آلات الاوركسترا مثلا لا يلزم أن تكون كل الأصوات المتصاعدة منها منسجمة النغمة بل قد تكون بعض الأصوات غير منسجمة ولا منغومة ، والعبرة بوحدة الأصوات التي تكوّن النغم الموسيقي . فاذا فهمنا هذا الأساس أمكننا أن نفهم عدم ضرورة القافية الواحدة ، ما دامت القافية المنوّعة تكوّن وحدةً موسيقيةً منسجمةً ، ويكفي أن يخرج من كل بيتٍ صوتٌ موسيقيٌّ ولا يلزم أن يكون في كل بيت نغمة موسيقية .

فالموسيقى ولا شك توجد فى القافية المنوّعة ، ومن الملحوظ أن أعلام الشعر البارزين كانوا من أنصار الطلاقة فى النظم ومن زعماء القافية المحرّرة . وقد لجأ الكثير منهم الى القافية المنوّعة اذا آنسوا أن المعنى قد تفسده القافية الواحدة أو أحسوا أن القافية الواحدة تخمد العاطفة وتطفىء الانفعال . ونعرف من شعراء الغرب الذين لم يهتموا بالنغمة الموسيقية الشاعر الفرنسى الحساس « ألفرد دى موسيه » الذى لجأ فى بعض الأحايين الى الشعر المرسل ووجه الى محبى القافية الواحدة من جماعتى الرومانتيكيين والبرناسيين عبارته الحادة الساخرة :

« لا تنظروا الى ردائى وأحذيتى بل انظروا الىّ وجهاً لوجه ، انظروا الى وجهى وحاولوا أن تقرأوا فكرى من أعماق عينى ! »

ولكننا نجد فى كلّ زمان ومكان جماعةً التقليديين والمحافظين والحفريين لا يحبون هذه الطلاقة لا فى اللفظ ولا فى المعنى ولا فى القافية ، ولا يميلون اليها جميعاً ، ونعرف من هؤلاء فى فرنسا المسيو دى بانفيل الذى كان يرى أن تفكير الشاعر هو القافية ! وأن الشاعر لا رأى له ، وانما الشاعر هو من يؤلف القوافى ذات النغمات الموسيقية ! ويتجاوب مع هذا التقليدى المريع جماعة المحافظين فى مصر ، وأولئك جميعاً يكفرون بالفكرة ولا يعرفون موسيقاها . . . أولئك لن تعمر أعمالهم أكثر من تعمير رنينهم فى الآذان الأسيرة ، بل أولئك جعلوا مع الأسف من الشعر صناعةً وأفقدوه رسالته المقدّسة التى جاء من أجلها وهى تثقيف الشعور وتنبيه الفكر وشحذ الانفعالات وتهيئة الطمأنينة للروح ، وأولئك قد شنّوا حرباً شعواء على شعراء الشباب المجدّدين واستقبلوا بصيحات الغربان

قصائد المجددين الذين يرون الجمال والموسيقى فى الفكر وفى انسجام الترتيل . ولقد هاموا على شكوى حقة غير شريفة ، وها هم الآن يوجهون سهامهم الى أبى شادى القوى المراس ، والى غيره من الذين ينادون بالشخصية فى الأدب وبالطلاقة والحرية والذين يهتمون بالفكرة ويدخلون الألفاظ الشعرية الجديدة والأخيلة الطريفة فى أساليبهم الشعرية ويلبسون قصائدهم مسحة من الجاذبية الحبيبة لذوى النفوس المتصوفة والطبائع السمحة . وسوف تذهب هذه الصيحات الناعبة أدراج الرياح وسوف يتجاوب الناس بشعر المجددين لأنه الشعر الطبيعى ولأنه القائم على تفهم روح الأشياء وعلى العاطفة الشعرية والتأثر الصادق والفكرة العزيزة — والزمن كفيل بأن يعيد المتعنتين الى مهيع الصواب وسبيل الانصاف ، فيتجاوبون مع نفوس المجددين ويستمعون الى مقياس أبى شادى الصائب فى الحكم على الشعر حين يقول :

كُنْ أنتَ نفسى واقترنْ بعواطفى ... تجدِ المعيبَ لدىَّ غيرَ معيبِ

شعرى — الذى تأباه — أنفسُ مهجتى ... وكفاه أن يحيا بنفسِ أديبِ

عبثاً تحاولُ فهمَه بتحاملٍ ... إنَّ العداةَ يردُّ كلَّ حبيبِ

لو طرْتَ فى دنيا خيالى لم تكن ... الاَّ رفيقَ مسرَّتى ووجيبى

ما كان هذا الشعرُ من لغة الورى ... لكنَّه قلبى وروحُ حبيبى !

ولعلَّه يأتى قريباً ذلك اليوم الذى يتجاوب فيه سواد الناس مع هذا الشعر الجديد ، عندما يدركون مذهب الشعر ورسالته ، وليس من شك فى أن أرواحاً

تتجاوب مع شعر المجددين في أقطار الشرق يجهلها المجددون كما يقول الشاعر الموهوب لامارتين في قصيدة « الخريف » :

لعلّ في سواد الناس روحاً أجهلها تفهم روحي وتتجاوبُ معي

Peût être dans la foule, une âme que j'ignore
Aurait compris mon âme, et m'avait répondu.

* * *

ونحن نرحب بهذا الديوان الصغير العزيز لا باعتباره ذكرى من ذكريات حب الشاعر التالد بل باعتباره نفحة من نفحات ثورته الفنية ، وآية من آيات التجديد في أغراض الشعر ومعانيه وأساليبه — ورجعة خاطفة الى الديوان ترينا الشاعر قد احتفل بذكر الحبّ في كثير من القصائد ، ونجد الروحَ الوطنيّ ينعكس علينا من مرآة الماضي ، فها هو الشاعر يرسل تحية بارعة الى سجين القلم محمد بك فريد ويعتزّ بعاطفة الاباء في قصيدته « عيش الحر » ويحيي صديقه الشاعر البارع علي الغاياتي ويحيي شهيداً من شهداء السياسة ، ويقف متحدثاً بخلال مصطفى كامل رحمه الله في حجه حول تمثاله ، ويضم الى صدره وطنه السكليم في حنوّ واشفاق ، ويذكر في تأثر ودموع الخُلفَ بين الاحزاب المصرية من ربع قرن بروح نزّاعة الى القومية الصادقة عازفة عن التحزب البغيض ، وهي الروح الصافية التي صاحبته منذ حداثته الى الآن . فها هو مثلاً يخاطب المجاهد النبيل فريد بك قائلا :

سيانِ كنتَ بنعمةٍ أو نقمةٍ ما دمتَ ترضى بالجهاد حجاكا
سيانِ كنتَ مقرّباً أو مبعداً ما دام حربُ العابثين مُناكا

وكذاك فخراً أن تناضل أمة   كم أرهقت من مصلحين سواكا

وها هو يصف الزعيم الأبي الشجاع مصطفى كامل بقوله :

يا كبير اليقين في قوة الحق (م) ويا بانياً قلوب الرجال

يا كثير الاباء في دولة البـ ـغي ويا ناسفاً صروح الضلال

الى جانب هاتين العاطفتين المنبثتين فى شعر أبى شادى ، وهما عاطفة المحبة الطاهرة وعاطفة الوطنية المتحمسة ، نجد الديوان يحوى نماذج من الشعر الفلسفى والشعر الغنائى وشعر الطبيعة . فشعره الفلسفى يتجلّى فى قصائده « التبرم » و « حظ الناقين » و « الدنيا » وغيرها من القصائد . والشعر الغنائى ظاهر فى قصيدته « وطنى ! وطنى ! » . أما شعر الطبيعة فما أحفل الديوان به وقد أتينا على نماذجَ منه فى قطعة « حياتان » التى يذكر الشاعرُ الطبيعةَ فيها ويجد فى حنانها ووداعتها لذّته وأُنسه ، وفى « أنفاس الخزامى » التى فاح فى الديوان عطرها ، وفى قطعة « وحى المطر » وفى قصيدة « مسرح الليل » التى وصف فيها الليل بأنه مسرح للطهر والتهتك :

مسرحَ الليلِ أىُّ مَلْهىً عجيبٍ   أنت تبدو للشاعرِ الفنّانِ

أنت مَلْقى العُبّادِ والطهرِ بينا   أنتَ مَجْلى التهتكِ المتفانى !

ثم يصف فيها وحى النجوم وصفاً دقيقاً إذ يقول :

والنجومُ التى تطلّ علينا   فى حنانٍ ورعشةٍ وافتتانِ

والذى يثير إعجابنا حقاً أن عبد الشاعر الشاب يسبق جيله فى طرق موضوعات تبدو تافهة ، موضوعات غريبة على معاصريه ؛ كما نجد ذلك واضحاً فى قصيدته « القطة اليتيمة » التى أخذ يخاطبها بقوله :

جلست قربى كأن قربى ... عزاء إحساسك اليتيم
وكم تألمت فى حنوى ... عليك فى صمتك الأليم

ثم يمضى بمخاطبتها فى حنان ورقة إذ يقول :

فلتغنمى أنت من حنانى ... ما شئت يا طفلة الغرام

وهذا الميل الى الخطرات التأملية ومعالجة الأشياء البسيطة ظهر واضحاً جلياً فى شعره فيما بعد ، وقد أتينا على نماذج من هذه الخطرات فى مقال عن « أبى شادى الشاعر » نشر بملحق (السياسة) الأدبى ، ولعل هذا الميل أيضاً هو آية من آيات المزاج الشعرى الدقيق والذى سبقنا اليه بعض شعراء الغرب الكبار مثل شاعر الطبيعة الانجليزى وردزورث الذى كان يرى أن أحقر الأشياء تصلح للشعر ، ومثل الشاعر الفرنسى بودلير الذى رأى « كلباً ميتاً » مسجى على العشب بين الأزهار النضرة فأخذ يصفه وصفاً غريباً مدهشاً ، والذى وصف قطته الجميل ذا العينين الزمردتين والذى تمثلت له فيه زوجته ا فنظراتها كنظرات هذا الحيوان الوديع !

وما أروع وأبدع ما قاله أبو شادى فى وصف هذا الميل الشعرى فى أبياته الساخرة الحنونة :

مَنْ كانَ يشعر دائماً بشعورى ... فى الليل أو فى الفجر أو فى الشُّورِ
ويصاحبُ الأجرامَ فى حركاتها ... ويجوزُ عيشَ الناسِ كالمسحورِ
وتجدَ التجدُّدَ دائماً إلفاً له ... فى النفسِ أو فى العالمِ المعمورِ
ورأى الحياةَ بما تُجدِّدُ دائماً ... أسمى من الإفصاحِ والتعبيرِ
توحى وتوحى دائماً ، فإذا الذى ... أوحتْهُ بعضُ جديدها المقدورِ
لو أنصفَ الشعراءُ ما قنعوا بما ... خلقوه من شعرٍ ومن تصويرِ
كم فى الحياة مجدَّدٌ لا ينتهى ... ولكم حقيرٍ وهو غيرُ حقيرِ

* * *

من هذا نرى أن شعر أبى شادى تأثر فى حياته الأولى بالحب الطهور ، وامتزج بالعاطفة الوطنية الحارة ، وتأثر بالطبيعة المصرية ، وتلوّن بإيحاء أعلام الشعراء وإن تجلت فيه شخصيته بدرجات مختلفة . تلوّن بوطنية حافظ الصادقة ، وموسيقى شوقى المتنوعة ، وأخيلة مطران الحرة . وهذا التأثّر ظاهر فى كثير من قصائده ، ويتجلى ذلك مثلا فى قصيدته « الحبّ والأمل » التى جاء فيها :

وفى الربيعُ فحىِّ الحبَّ والأملا ... وسائلْ الذكر إن كان الفؤاد سلا
واحفظ حديثَ الغوانى فى أزاهره ... واحرصْ على النفس أن يدنى لها الاجلا
من كل هيفاء إن ماست وإن نظرت ... لم تترك القلب الا حائراً وجلا

فانت أثر شوقي محسوس في هذه القصيدة . ولكن أبا شادي لم يقف عند حد مثل هذا التأثر ولا عند حد تجاوبه مع زعيم المجددين خليل مطران ، بل تحوّل الى الأدب الانجليزي وتأثر به على قدر مطالعاته في ذلك الحين . ونظهر أثر هذا التأثر في قطعة « موسيقى الوجود » التي نظمها متأثراً بقصيدة « موسيقى العالم » للشاعر جبرائيل سيتون . والى هذا فانا نلحظ في هذا العهد نزوع الشاعر النفسي الى الابتكار والى التفكير الحر والى الطلاقة الشعرية ، كما يتجلى ذلك في قصيدته « أنفاس الخزامى » وهي من أفكاره الأصيلة ، وفي قصيدته « بنات الخريف » التي نزع فيها نزعة مستقلة متجردة عن آثار كبار الشعراء في عصره ، وهذا ينم عن وجود شخصية فنية فتية تعمل للبروز وللحياة ، شخصية بدأت مرحلتها الفنية مدفوعة بعاطفة الحب الفردي والحب القومي وأخذت تتطور الى العاطفة الانسانية العامة ، وغمرت تلك العاطفة الأخيرة دواوينه التي نشرت حديثاً . فعاطفة الحب الفردي اختفت تقريباً من دواوينه الأخيرة وإن كان قلبه لا يزال يندلع به اللهبُ ، وعاطفة الوطنية المتحمسة هدأت واعتدلت وتسيطرت عليها العاطفةُ الانسانية التي جعلته يميل الى « الأسلوب المتعادل » يعبر به عن شعوره ، وينزع الى الطلاقة في التفكير والصدق في الطبيعة ، والى الانسجام في الترتيل ، والى الروح الشعرية العامة التي تجعل شعره قابلاً للترجمة الى أية لغة ، وبهذا كوّن أبو شادي لنفسه نزعة خاصة ، وشخصية فنية مستقلة .

* * *

ولنا كلُّ الحق بعد هذا أن نرحب بهذا الديوان البكر في ثوبه الجديد لأنه

قطعة من نفس الشاعر وعمل يفتخر به كبار الأدباء في أمثالهم ، ولأنه من البذور الأولى لأزهار الشعر الحديث ومن الإرهاص الأول لحركة التجديد الأخيرة .

ونكرر التأكيد بأن هذا الديوان سوف يرضى بجمال ديباجته جمهرة المحافظين وقد أرضى أمثالهم من قبل ، كما سوف يبهج بجرأة أخيلته وبراعة تصويره أذهان المجددين . ونحن بلا ريب نفخر بجهود أبي شادي التعاونية الحاضرة وبروحه الأدبية النبيلة المتسامحة ؛ التي لا نجدها في جمهرة أدبائنا ، ولا نريد أن نترك القلم حتى نسجل أسفنا للحملات المجنونة التي يشغب بها فريق من المحافظين وبعض العاثرين من عجزة الأدباء ضد أبي شادي وضد أدباء الشباب ، بل نأسف أكثر من ذلك لتلك الطعنات التي يوجهها اليه حتى بعض من أشاد أبو شادي بذكرهم ، ويسرنا أن أبا شادي يقابل تلك الحملات بالسماحة ، وبالانتاج الفكري المطرد ، تاركاً لأعماله ذاتها انصافه نفسها بنفسها ، وقد تعوّد الآلامَ والجحودَ من قديم في بيئتنا المصرية المتأخرة فناجى نفسه مناجاةً قويةً في قصيدته الرائعة «فؤادي» التي يقول فيها :

تَشجَّعْ في المصائبِ يا فؤادي ... وكُنْ بصلابةِ الحجرِ الكريمِ
ألستَ كجوهرٍ في طيِّ جسمي ... خبيءٍ لا يُعرِّفُ للئيمِ
إذا الأحداثُ عضتْ فيكَ فاكسرْ ... نيوباً لن تنالَ من العظيمِ !

ولا ريب أن الأدب المصري يغتبط أشدّ الاغتباط بمثل روح أبي شادي كما يشجى أشد الشجى من تصرفات الأدباء الناقمين ، وان التاريخ الأدبي ليجذل أيضاً بخروج هذا الديوان من اعتكافه لأنه يحمل ذكريات أيام طيبة خالية ،

ويزيح الستار عن صورة التطور الروحي للشاعر، ويكشف عن شخصيته الفتية التي بدأت تتفتح للنور وتشق طريقها الى الفن والى المجد، واسكأني به يرسم خطوات نفسه الطموح في عهد الحداثة بقوله في مقطوعة « حظ الناقمين » ، يقول :

بلغتُ من الأعوام بضعاً وعشرةً أُقيم على دين الملا وأسيرُ
وفي النفس حاجاتٌ وفي القلب لوعةٌ على أنّ كلي همةٌ وسرورُ !

وبودّي لو يتنبه جمهرة القراء الى جهود هذا الشاعر الانساني، ويتمعنوا في شعره وأخيلته ليلمسوا ما يحيه من شاعرية صافية ويحسّوا ما فيه من جمال عجيب .

ولا يسعني أخيراً إلا أن أقدم للشاعر إعجابي بروحه الأدبي النبيل، وثنائي على ديوانه البكر الفريد ما ؟

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

شخصية أبي شادي

ومميزات شعره

انها لفرصة سعيدة ، تلك التي أتاحها لنا الشاعر المجدّد الدكتور زكي أبو شادي باعادة طبع ديوانه الأول (أنداء الفجر) لنتحدث عنه وعن الباكورة الأولى ، وما اشتملت عليه من شعر الطبيعة والتصوير والعاطفة ، ومميزات الشخصية في هذا الشعر ، وخصائص التجديد فيه .

واذا أردت أن أتحدث اليك عن الشاعر أبي شادي أو أرسم لك صورة عنه فلا تظن أني سأجمع كل أدوات التهويل والتضخيم مستعيناً بها ! كلا ! فما تصورت أن أتناول الناس بمثل هذا ، ولا أحسبه يرضى بذلك ، ولكن سأحاول أن أرسم لك صورته دون زيادة أو نقصان ، وإن كنت لم أره غير مرة واحدة الى اليوم . إن أبا شادي رجل اعتيادي لا يروعك صامتاً ، ولكنه إذا ما تحدث اليك راعك منه أنه يحيا في الحياة ، بنفس طفل ، وقلب شاعر ، وفكر فيلسوف ، وهو لا يحاول التعامل على الغير كاتباً أو محدّثاً ، فهو إذا حدثك عن أديب أو شاعر ، ذكر لك محاسنه ومساوئه كما يرى هو دون تحيز أو افتئات ، وموقفه ممن يسيئون اليه دائماً هو موقف الرثاء لهم ، أو الاشفاق عليهم ، وكم مطاعن وُجهت اليه فاستقبلها باسماً ثابتاً ، كما يثبت الطود الأشم ، للاعصار العتيّ ، وكثيراً ما عادت عليه هذه المطاعن ، بعكس ما كان ينشده أصحابها :

كم من مطاعن لى تكال كأنها   شرف يكلل هامتى بالغار !

وهو لا يندم إذا ما جزاه الناس على حسناته بالقحة والتقوّل ، ولكنه يلتمس لهم المعاذير ، لعلمه أن هذه هى طبيعة الحياة :

فيم الندامة إن شممت دناءة   وجزاء ما أسديت من حسناتى ؟

النحل يعطى الشهد جوداً سائغاً   ولكم يكافئه الورى بأذاة !

فهذا الشاعر هو فى الواقع رمز التسامح والنبل ، وكلما أحرجت صدره الحرجات هرب من هذه الدنيا الخسيسة الى دنيا التفاؤل والخيال ، ليتلهى بمناظرها وليغرق فى محيطها ما علق به من أوشاب حياتنا الذميمة :

وأعيش فى دنيا التفاؤل ناسياً   دنيا تفيض قساوة وعداة !

ولم يخدم الأدب والشعر فى هذه الأيام أحد مثل ما خدمهما ذلك الشاعر ، فلقد أنشأ مجلة (أبولو) وجعلها منبراً حراً للشعر والدراسات الشعرية ، فأوجد بذلك نهضة فى الشعر حرية بالالتفات اليها . كما كشف لنا عن أكثر من خمسين شاعراً ، كانوا لولاه سيظلون مغمورين مجهولين ، لا يحس بهم أحد ، ولا يعلم من أمرهم شيئاً . وأكثر من هذا أنه كان وما زال ينشر الأبحاث ناظراً لأهميتها دون أصحابها ، وكثيراً ما كان ينشر الأبحاث لأعدائه ، يذمونه فيها ويعيبون طريقته ، وكثيراً ما كان يؤثر هذه الأبحاث على أبحاث أخرى ترد اليه وكلها مدح فيه ، واستحسان لطريقته ومذهبه ؛ فقل لى بربك من رئيس التحرير هذا الذى ينشر لخصومه سهامهم المفوّقة اليه ؟ أما أنا فلا أعلم أن أحداً من رؤساء التحرير

يلغ به النبل أو التسامح الى هذا الحدّ ، ولكنى أعلم أنهم يفرقون كل الفرق من النقد الخفيف يوجّه اليهم ، كما أعلم أنهم لا يتورّعون عن أن ينشروا كل كلمة من مدح أو استحسان تصاغ فيهم ، حتى ولو كان صاحبها يقصد بها الى المداعبة والسخرية من طرف خفى !

ذلك هو شاعرنا المتجدد أبو شادى فى كلمات قصار ، وأعود الآن بك أيها القارىء الى ديوانه الأول (أنداء الفجر) بعد ما تشعب بنا وبك الحديث ، فالكلام عن هذا الديوان هو الغرض الأول وبيت القصيد ، ولعل الذى حفز الشاعر الى إعادة إخراج هذا الديوان من جديد ، هو تحقيق رغبة حبيبته الأولى « زينب » صاحبة هذا الديوان ، وموحية قرائده ، والتى يهدى اليها الديوان فى قصيدة رائعة مؤثرة منها :

رُبعُ قرنٍ مضى وهيهات تمضى ... شعلةُ الحبّ عن وُثوبٍ وومضٍ
لم أزل ذلك الفتى فى حنونى ... وفؤادى فى نبضه أىّ نبضِ
ذكرياتُ الهوى وأشباحهُ النشوى أمامى فى كل صحوٍ وغمضٍ
نُشرت فى السطور بعد احتجابٍ ... كنثير الحيا على زهر روضٍ
كم شقينا تفرّقاً وحياةً ... وخضعنا لحكم دهرٍ مُمضٍّ
ورجعنا ننوح نوحَ يتيمين على ذلك الصّبا المنقضّ
عَلم الحبُّ ليس غيرُك مجدى ... فى وفاءٍ وليس غيرُك خفضى !

ولعلّ الذى دعاه الى ذلك ، هو إلحاح إخوانه وأصدقائه عليه بإعادة طبعه ،

لما فيه من روح الصبا ، التى لم يبق له منها غير الذكريات التائهة والحنين الشارد .

ولعل الذى دعاه أكثر من ذلك ، هو شوق أشقاء هذا الديوان وهم كثر بين أنين ورنين ، ومصريات ، وزينب ، ووطن الفراعنة ، والشفق الباكي ، وأشعة وظلال ، ووحي العام ، والشعلة ، وأطياف الربيع ، والينبوع ، وغيرهم إلى أن يجدد والدهم البار شباب شقيقهم الأكبر فيسعدوا بطلعته ، ويحيوها ليلة شاعرية فى مولده !

أما نحن فانه ليهمنا كثيراً أن يظهر هـذا الديوان ، ولو لم يعمل الشاعر على إظهاره مؤثراً كعادته الانتاج الجديد لطالبناه به لأننا نريد أن نعرف ، هل كان المذهب الشعرى الذى يدعو اليه شاعرنا فى هـذه الأيام متميزاً فى أشعاره الأولى أم هو طارىء عليه بعد الدراسة الطويلة فى الآداب الفرنجيـة ؛ وهل شخصيته التى تطالعنا فى دواوينه الحديثة ؛ هى شخصيته الأولى أم أصابها شىء من التحوير ؟ وما هى الأغراض والدواعى التى كان يقول فيها الشعر ، فى الوقت الذى كان فيه كثرة الشعراء المعاصرين يفنون أوقاتهـم فى معارضة المتنبي أو البحترى أو أبى فراس وغيرهم ، أو فى نظم القصائد المهلهلة فى مدح من لا يستأهل المدح ، أو رثاء من لا يعرفون ، رغبـة فى الظهور على جثث الموتى وأشلاء الذاهبين ؟

* * *

يتلخص مذهب أبى شادى الشعرى فى تجـديد اللفظ والأسلوب والقافيـة والمعنى ، فهو كثيراً ما يترفع عن الألفـاظ والأساليب التقليدية حتى يظن المتزمتون أنه يتهاون فى ألفاظه وأساليبه ، وهو يحل نفسه من قيود القافية فى

كثير من شعره ، حتى ليخيل اليهم أن ذلك ضعف وعدم قدرة على مسايرة القافية الواحدة ، وهو يتعمق فى كل معنى يلمسه ، ويجيل طرفه فى كل ما يحيط به كبر أو صغر ، فيخرج منه معنى شعرياً جديداً ، فيحسب الجامدون أنه لا يتخير موضوعات شعره ، فاذا سمعوه ينظم فى « ذباب الصيف » صاحوا به : أو حتى الذباب يستأهل منه العناية والالتفات ؟ يا للعجب ! وما يبقى للشاعر أيها الفقيه إذا لم يسجل كل ما تنفعل له نفسه هان أم عظم ؟ ولكن الشاعر لا يجشمنا مشقة الردّ عليهم فى ذلك ، فيدحض هو هذه الفرية فى قصيدة « التجدّد » :

لاموا شُبوبَ عواطفى وتخيّلى ... وتدفّقى بالشعر ملءَ شعورى

وأنا المجولُ أمامَ ما أنا ناظرٌ ... من كل مُوحٍ بالغِ التأثيرِ

فيهزّنى هزّاً ، ولكنى الذى ... مهما أجدتُ أحسّ بالتقصيرِ

وأكاد أوقن أنّ مَن هو لائمى ... إمّا ضررٌ أو شبيهٌ ضريرِ

إنا يكون كلّه شعرٌ بلا ... حصر ، وكم من عاجزٍ مغرورِ !

وقد جمع أبو شادى فى (أنداء الفجر) ألواناً من شعر الوصف ، والحب ، والوطنية ، والهيام بالطبيعة ، والفلسفة ، وهو فى كل ناحية من هذه النواحى ، لم يشذّ عن طريقته أو يخرج على مذهبه .

فاستمع اليه وقد أخذ يصوّر لك أنداء الفجر ، على ثغور الأزهار ، وفى ألق الشعب ، وفوق الغصون ، بشعر لم يسعد الشعر العربى بأبدع منه لفظاً ومعنى ورقة وعذوبة ، فيقول :

من دموع النجوم، من سهر الما ... شق صيغت، ومن رجاء الحياة
فى حنانٍ ورقةٍ ، وهى لا تـ ... ـلكُ من عمرها سوى لحظاتِ
فى ثغور الأزهار ، فى أُلق العشـ ... ـبِ وفوق الغصون تحيا وتفنى
وهبت حُسنَها الضحية للشمـ ... ـس ، كأنّ الفتاة للشمس أغنى
ويعود الفجرُ الوفىُّ بها بـ ... ـهِ ثاً ولكن تعود تمضى الضحيه
هى ملكٌ لنا حياةً وموتاً ... وهى بالرُّوح صورةُ الأبديه

إن هذه المقطوعة البارعة من الشعر التصويرى حسنة من حسنات الشاعر، ولو لم يكن له غيرها فى الوصف لكفته غِنى فنّياً .

ويرى شاعرنا القارب يشقّ طريقه على صفحة الماء فى زهوٍ وابتهاجٍ فيعجبه هذا المنظر ، ويسترعى خياله فاذا به يطرفنا بصورة صغيرة :

يشقّ القاربُ المزهوُّ مثلى ... طريقاً فى المياه مع ابتهاجى
فيكسر صفحةَ الماء رائقةً ... ونسمع صوتَ تكسير الزجاجِ

فهنا يذكرنا أبو شادى بأيام طفولته وابتهاجه ، أيام كان يكسر الزجاج وغيره كما يكسر القارب صفحة الماء الرائقة !

وأزهار الخزامى ، ماذا كان شأنها مع الشاعر؟ إنها لأزهارٌ مصريةٌ صميمة ومن مصر انتشرت الى سائر الأقطار ، ولقد وقف أمامها الشاعر ، يحدثنا فى غزل صوفى عن أنفاسها ويصف ما توحى به الى النفوس الشاعرة ، من خطراتٍ ومعانٍ ساميات :

أيُّ عطرٍ فاقَ أنفاسَ الخزامى ... في حنانٍ يملأُ الروح سلاما ؟!

***

لا يراها غيرُ مَن كانت له ... روحُها أو من يحاكيها غراما

تتوارى عن عيونٍ لا ترى ... دقةَ الحسن ، وأخرى تتعامى

أيها الأنفاسُ طيبي وانشرى ... خطراتِ الحب حتى يتسامى

كم وقفنا في مجالى نشوةٍ ... عند مَرآك فتوناً واحتشاما

لم نقبل غيرَ معنى حائمٍ ... حولنا منكِ عشقناه دواما !

واستمع اليه وهو يصف لك مسرحَ الليل وما يختلف عليه من مَراءٍ ومشاهد عجيبة ، تخلقها يدُ الليل الساحرة ، أو تمعن في مقطوعته « بنات الخريف » والتي يقول في مطلعها :

هلمى ! هلمى ! ... بنـات الخريفْ

وطوفى وطوفى ... بهـذا الخفيفْ

نراك ... بأوها ... منـا ... جائلهْ !

فانك لا شكّ واجدٌ ضروباً من الوصف جديدة تشهد لصاحبها الناشىء بأن سيكون له في المستقبل شأنٌ عظيمٌ في الوصف . أوليس هو القائل بعد في ديوان (الينبوع) عن فتيات الريف وقد اجتمعن على شاطىء الغدير يملأن الجرار ويغسلن الثياب :

ما بالهنّ لدى الغدير حوانياً ... ينشدنَ للماء النشيدَ الغالي

والماءُ يضرب فى حنانٍ دافقٍ أقدامَهن فما تراه يبالى ؟!
يغسلن عابسةَ الملابس تارةً والشطُّ مزهوٌّ بهن مُبالِ

إنى لأكاد أسمع من خلال هذه الأبيات أناشيد الريفيات وامتداد الماء الى الشاطىء مرتمياً على أقدامهن فى حنان دافق ، كما أكاد ألمس فرحة الشط بهن ، ومع ذلك يتصايح الجامدون : أين الشاعر المصرى الذى يصف الحياة المصرية ؟!

ثم أليس قد أبدع أيضاً إذ وصف الجدول الصغير جارياً كما تجرى الطفولة فى ابتهاج على حين قامت حوله الحور كأنها تحرس جسمه العارى فيقول :

وبدا الصغيرُ الجدولُ الجارى كما تجرى الطفولةُ فرحةً وحنانا
فغبطتُه ، والحورُ قامت حوله كالأهل تحرس جسمه العريانا

ويجب أن ننبه هنا الى أن أباشادى يكثر دائماً من تقديم الصفة على الموصوف للتنبيه الشعرى كما يقول «وبدا الصغير الجدول» وأنا لم أرَ ذلك لشاعر من قبله ولعلها إحدى حسناته .

فما تتقدم تستطيع أن تدرك أيها القارىء مدى تفوّق شاعرنا فى الوصف ، وقدرته على أن يريك ذوات موصوفاته كائنات حية تفرح وتغتبط !

أما الغزل فله النصيب الأوفى من الديوان ، وما هو الا صلوات يتقرّب بها الى حبيبته الأولى « زينب » . ولقد اشتدت العلة بشاعرنا يوماً ، فاذا هو ينشد بين الحب والأمل قصيداً سائغاً ، يصف فيه حاله ، ويعتب على الدهر، ويعدّ عليه ذنوبه ، ويوسع معبودته جدلاً طويلاً على نومها عنه ، وهى تداعبه ، وتبكى له ، وتقربه :

مرّت كحُلمٍ يجاريه الدلالُ فلا   عُدْتُ عليه ، ولا أخفتُ له مثلا
وداعبتني بصوتٍ خافتٍ وبكت   وقربتني ، وقالت : حسبنا جدلا !
الدهرُ فرّقنا ، والدهرُ ألّفنا   فانسِ الذنوبَ ، ولا تعتبْ لما فعلا !

فانظر الى قوله « قربتنى » فى البيت الثانى ، والى حذف متعلق الفعل ، ثم قل لى : أى سحر أو حسن ، وأى أفق من النعيم ، يختفى وراء هذه الكلمة العذبة بعد الحرمان الطويل ؟ ! وتقذف الأمواج مَن على شاطىء الحب ، وتباعد الأيام بينه وبين عهود صبابته الأولى ، ثم يلتفت فجأة ليرى أين هو من هذه العهود فاذا هو قد بعد عنها ، أو قد بعدت هى عنه ، وإذا هو لا يرى مَعلماً يهتدى به ، أو شرفاً مطمئناً يأوى اليه ، وإذا هو ينشد فى لوعة جازعة ، وحسرة غائرة :

ما ينفع الصبّ الكئيب من الجوى   حتى يحنّ الى البكاء حنينا ؟
أسفى على عهد الصبابة لم يكن   إلا شعاعاً كاذباً مظنونا !
أسفى عليه وقد فقدت شبابه   ووهبت فيه فؤادى المغبونا
وظللت محزوناً أكفكف أدمعى   أملاً ، وعشت متيماً مفتونا
متصدّعاً من لوعة ، متراجعاً   من هيبة ، مستغفراً ، مسجونا
يا حسرةَ القلب الضعيف اذا رجا   مَنْ لا يزال على الوفىّ ضنينا !

وهو لا يمكن أن يتلهّى عن « زينب » أو يحيا فى غير « زينب » ، بل هو ما زال الى اليوم يسير على وحى « زينب » مهما غبنته ، ومهما عانى فى سبيلها :

أزينبُ ! إن حييتُ فما حياتى   سوى الذكرى وما عداها الآن فانى
ترى هل بعض أشواقى يرجّى   لديك ، أم الطفولة لا تعانى ؟
كلانا فى الهوى طفل ، ولكن   أنا الطفل الغبين ! أنا المعانى !

وتشيع أشعاره فى « زينب » فإذا قومها حانقون عليه غاضبون ، وإذا هم يحجبونها ، ويبالغون فى الحجاب ، وما أشقّ الحجاب على نفس الشاعر العاشق ، وان الموت لأهون عليه من أن يحترق بنار الحرمان وجحيم الحجاب ، ولولا التقاليد القاسية ما حال بينه وبينها حجاب أو باب ؛ وماذا يحدثُ لو ظهرت المرأة فى مجتمعنا المصرى ؛ وهل ينتظر التقدم لشعب نصفه مفقود ، أو سجين بين الجدران ، فلا يستنشق الهواء ، ولا يتمتع بنور الشمس ؟ إن المجتمع الذى لا تباركه المرأة لا يمكن أن تقوم له قائمة بحال ؛ ذلك أقل ما يطوف برأس الشاعر عند ما يذوده الناس عن مورده ، كما أنه يرى العدم خيراً من حياة تتحكم فيها التقاليد ، وذلك ما حدا بأبى شادى عند ما حجبوا « زينبه » أن يصيح :

يا « زينَ » دنياىَ التى ما نالنى   منها سوى قلقى على حرمانى
لمَ يحجبونك ؟ هل أثمتُ بكل ما   أعطيتُ حسنَكِ من جمال بيانى
فاذا حُجبتِ فمن أخصُّ بمهجتى ؟   ولمن أعيشُ ؟ ومَنْ له وجدانى ؟

وتهطل السحب بالمطر مدراراً ؛ فاذا هو يوحى اليه بالظمأ على حين قد رويت الغصون والأزهار ، وانه ليعجب كيف تتساقط القطرات من يد زهرة ليد أخرى ، وهو وحيد ينشد الرىّ ، وكيف لا يذكر القطر حبيبته برسالة الحب

فمساها تذكر ، وتعطف عليه كما يعطف القطر على الأزهار والأشواك ؟ وإنى لأحس حقيقة بظمئه عند ما أقرأ هذه الأبيات :

أنا ظامىءٌ والكلّ حولى ظامىءٌ   فتقطّرى يا سُحبُ كيف حننتِ
هذى الغصونُ تناولت ما خصّها   ولبثتُ فى ظمئى لوحيك أنتِ
تتساقط القطراتُ من يد زهرةٍ   ليدٍ ، لأخرى ، والجميع سكارَى
وأنا الوحيدُ ! فأين أين حبيبتى   حتى تردّ جوى ، وتطفىء نارا ؟ !
هلاّ بعثتِ الى دفين شعورها   برسالةِ الحب الوفىّ الباكى ؟
فلعلّها تأتى وتنثر عطفها   كالقطرِ فوقَ الزهرِ والأشواكِ !

وكثيراً ما أبت عليه عبادته المتناهية لزينب كل مطمع ، وكثيراً ما جنى عليه حياؤه ، وأضاع أشواقه ، فاذا كان قريباً منها بجسمه فهو بعيدٌ عنها بقلبه ، هذا القلب الذى قد حرم كل شىء ، فهو القريب البعيد ، وهو هنا فى حيرة بين عقله وعاطفته ، فهو يريد كلّ شىء ، ولكن عقله يصدّه عن أى شىء ! فماذا يصنع ؟ لا شىء إلا هذه المقطوعة من الغزل الرفيع :

ما لعينى كلما ألقاكِ بالفرحةِ تدمعْ ؟
بى رجاءٌ ليس يخبو ، ورجاء ليس يلمعْ
وأنا كالتائه العانى الى الأوهام أفزعْ
هالكٍ قلبى يا حياتى نبئيه كيف يصنعْ ؟

هو فى القرب بعيدٌ عنك يهفو ثم يجزعْ

آهِ ! كم يحيى حياتى ! آهِ من شوقٍ مضيّعْ !

وعباداتٍ تناهتْ فأبتْ لى كلَّ مطمعْ

ونحن لا نستطيع أن نستقصى بالدرس والتحليل كل ما قاله الشاعر فى هذا الديوان من شعر الحب والوجدان ، ويكفى أن نعرض عليك زهرات من رياض حبه الأول لتعرف أن الرجل كان يعانى لوعة حب صادق ، وأنه كان يتفجر عن معين عذب سائغ ، على حين كان كثرة معاصريه فى الوقت ينحتون من الصخر شعراً فاتراً ، يتغزلون به فى « ليلى » و « هند » و « دعد » و « الرباب » و « مى » دون أن ينبض قلبهم بحب أو يختلج بعاطفة !

ولكن لن نخرج من الكلام عن غزله حتى نختمه بموشح رائع ، هو فى الواقع مسك الختام ، وفيه يتجلى لك مذهب أبى شادى الشعرى واضحاً قوياً ، وانه ليدلنا دلالة واضحة على أن هذا المذهب ليس وليد الدراسة الجديدة أو وليد اليوم ، ولكنه يرجع إلى مبدأ عهده بالشعر ، فهو رسالة ، كأنه أمر بتبليغها ، مهما ناله فى سبيلها . فاستمع الى هذا الموشح « طاقة أنغام » تجد فنوناً من المعانى الجديدة ، كما تجد ولهه بكل ما هو فنى وبكونه الملىء بالمعانى التى غابت عن كوننا نحن :

إذا استمعتُ إليكِ فُتِنْتُ من توقيعكْ

كأنَّ سمعى لديكِ عينى بجلى ربيعكْ

أصغى الى هذه الألحان زاهية ... كأنها نخب الأزهار العين
فكل لحن له لون يضىء به ... وجمعها طاقة من زهرك الفنى
وكل لحن له عطر يفوح به ... وإن تخيله غيرى من الظن
وأنت كونى ، وكونى فى حقيقته ... جم المعانى التى غابت عن الكون !
اذا استمعت اليك ... فتنت من توقيعك
كأن سمعى لديك ... عينى بمجلى ربيعك

ولا أبيح لنفس التعليق على هذه القطعة الفريدة ، فان كل تعليق مهما دق لا يوفيها حقها ، وانما أقول لك : اقرأها مرة ثانية وثالثة فانك ستلق فيها فنوناً من الغذاء الروحى ، قلما تقع على مثلها فى ديوان بجملته لشاعر آخر فى عصر لم يعرف معظم شعرائه غير التقليد والمحاكاة ، ولا عجب فى ذلك فالشاعرية لا تتقيد بسن أو عصر أو ثقافة .

* * *

وبعد ، فنريد أن نعرف هل فى الديوان الأول للشاعر أبى شادى ما يدل على ولعه بالطبيعة وفنائه فيها هذا الفناء الذى يتجلى فى مثل قصائده : بحر السماء ، الاشعة الصادحة ، استاذى المصور ، أمنا الأرض ، الشروق الهادىء ، حزن الفجر ، صلاة الصباح ، وغيرها من القصائد التى يندمج فيها بالطبيعة ، وتندمج الطبيعة فيه ؟ والجواب على ذلك هين سهل ، فأنت اذا قرأت ديوان (أنداء الفجر) تستطيع أن تعثر للشاعر على مقطوعات هى فى الواقع بذور صالحة لشغفه بالطبيعة ، وعباداته

إياها فقصيدة « موسيقى الوجود » ليست إلا فناءً أمام جمال السكون وجلاله وتقديساً لمظاهر الوجود الرائعة :

حدثوني عن الوجود المغني كلّ ما فيه صادح يتغنى
من جماد ومن نبات وأحياء ، فليس الغناءُ فيهن فنّا
وعجيبٌ إذا تناءيتِ عني لم أجد الغناء فيهن معنى
وإذا ما ظفرتُ منكِ بأنسي صار هذا الوجودُ لحناً وفنّا !

واقرأ له مقطوعة « حياتان » تجد فيها هياماً بالطبيعة لا حدّ له ، ففي مناجاته إياها يرى السعادة ، وفي الابتعاد عنها يعاني الشقاء ، وفي حمى إخوته من طيور ونبات يبدو له وحي أمه الطبيعة رائعاً جذاباً :

أمي (الطبيعة) ! في نجواكِ إسعادي وفي ابتعادي أعاني دهري الصادي
وفي حمى إخوتي من كلّ طائرة وكلّ نبت نبيل وحيُك الهادي
ما بالها هي صفوي وحدَها فإذا وجدتُ الناس لم أظفر بإسعادِ ؟
كأنما الناس أعداءٌ : فبعضهم حربٌ لبعضٍ ، وحُسّادٌ لحسّادِ !

بل إن هذه المقطوعة لتذكرنا بشقيقتها « أمنا الأرض » من ديوان (أطياف الربيع) :

أمّاه إن لديكِ صفوَ حنيني وإليكِ مرجعُ فرحتي وأنيني
ألقاكِ في كنف السكون عبادةً وأقبّل التربَ الذي يُحييني

وأروح أعشق كلَّ ما أحببته ... فجميعه شعرٌ إزاء حنيني
ما النحل ، ما هذي الدواجن كلها ... والنرجسُ الا الشعر ملءَ رنيني
وأرى الألوهة فيه بين توثّب ... وتطاير ، ووداعة ، وسكون
والناسُ تعجب من توزّع خاطري ... وهو الموحّد فيك غير غبين
أمّاه ! موئلُ كلّ لب شاعر ... نجواك فهي مفاتني وفنوني

وإذا كنت قد عرفت الآن أن ولع الشاعر بالطبيعة أصيلٌ في نفسه منذ حداثته ، فاني أريد أن أزيدك علماً بشخصيته ، وأنها واضحة قوية في ديوانه الأول ، كما هي واضحة قوية في ديوانه الأخير ، وأنك تستطيع أن تنقل قصيدة من (أنداء الفجر) الى (الينبوع) وقصيدة أخرى من (الينبوع) الى (أنداء الفجر) فلا تكاد تحس أن هناك فارقاً وذلك مما يدل على أن شاعرنا مطبوع وأن شعر صباه يستطيع أن يقف مع شعره الأخير جنباً لجنب ، دون تواضع أو استخذاء . ولا أنك الآن بحاجة الى أن نحدثك عن خصائص شعر أبي شادي فهي جلية واضحة ، وقد سبق أن ألمعنا اليها .

وكنت أحب أن أحدثك أيضاً عن وطنيات أبي شادي ، وفلسفته ، وحبه العام ، وإنسانيته ، لولا خشية الإطالة ، فليكن لذلك بحث آخر ، وعسى أن أكون قد وفّيتُ الشاعر بعض حقوقه ، فكم له علينا وعلى الأدب والشعر من أيادٍ بيضاء ، وبحسبه أن قد بعث الشعر من مرقده ، واستثار عناية النقّاد بالشعر الى درجة بعيدة ، حتى قامت حوله معارك خطيرة ، ودفع الشعراءَ في طريق التجديد والانتاج الصحيح ، كما قضى على النظم السطحي في المناسبات الطارئة ، هذا النظم الرخيص الذي يُنسب زوراً الى الشعر!

وما أحوج ناقدى أبى شادى أن يتذكروا دائمًا بيته المشهور :

كن أنتَ نفسى واقترن بعواطفى   تجد الحبيبَ الذى غيرَ معيبِ !

وستريهم الأيامُ خطأَ رأيهم فيه وفى شعره ، فالأيامُ وحدها هى الفيصلُ ، وهى لا شك كفيلةٌ بالانصاف ما ؟

عبد العزيز عتيق

مطران وأثره

في شعري

بقلم صاحب الديوان

لو لم أهدِ مَنْ أهديتُ اليها هذه المجموعة الأولى المستقلة من شعري لما قلّ سروري باهدائي إياها الى أستاذي الجليل خليل مطران ، فقد عرفتُ صحبةَ هذا الرجل الانساني واستاذيته منذ ثلاثين سنة إذ تعهّدني صغيراً فبقيت أهتدي بهديه، وكان أول ناقد لأدبي وأنا لم أتجاوز بعد الثانية عشرة من عمري. ولي أن أقول عن تأثيره على شعري ما قاله المازني عن أدب شكري : فلولا مطران لغلب على ظني أني ما كنتُ أعرف الا بعد زمن مديد معنى الشخصية الأدبية ومعنى الطلاقة الفنيــة ووحدة القصيد والروح العالمية في الأدب وأثر الثقافة في صقل المواهب الشعرية. ومع هذا التأثير العميق في نفسي شبّتْ روحُ الثورة والاستقلال فتحملت مسؤولية خواطري وتعابيري ، وبهذا الروح لم أغير كلمةً من هذا الشعر الذي له في نفسي قداسة الصبا وذكرياته وإن صرّحتُ الآن في هذه الطبعة ببعض الاسماء وبعض المناسبات ، وبهذه العقيدة ربطتني باستاذي هــذا العمر الطويل رابطةٌ مقدسةٌ من المحبة المتبادلة والتجاوب الشامل لم ينل منها كرُّ السنين مثقالَ ذرة ، فكانت وما زالت مضرب المثل في عالم الأدب والصداقة .

وليس هذا هو كل شعرى فى سنة ١٩١٠ فقد كنت مكثراً — اذا جاز هذا التعبير — منذ حداثتى ، وانما هو مختارات منه ، وقد سبقته مختارات نشرت فى الجزئين الأول والثانى من كتابى (قطرة من يراع فى الأدب والاجتماع) . فأما الجزء الأول من ذلك الكتاب فمعظم شعره من نظم الطفولة ومنى ما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة وأقله فى الخامسة عشرة ، وأغلبه تقليدىّ النزعة وإن تكن فيه على قلتها حسناتٌ أصيلةٌ . وأما الجزء الثانى ففيه من شعرى ما نظمته فى السادسة عشرة والسابعة عشرة متأثراً جدّ التأثر بتعاليم مطران ، وهو بدء نضوجى الشعرى . وكان مأمولاً طبع ديوانى الأول كاملا طبعةً فنيةً فيما بعد ولكنى نُكبتُ نكبةً عاطفيةً قاسية غيرتْ مجرى حياتى فغادرتُ مصر الى استانبول ثم الى انجلترا فى أوائل سنة ١٩١٢ ولبثتُ مغترباً عن وطنى أكثر من عشر سنين نظمتُ فيها الكثير من الشعر كمادتى ما بين أصيل ومترجم ، الى جانب آثارى الأدبية الأخرى وفى مقدمتها ترجمة كتاب الاستاذ نكلسون فى أدب اللغة العربية ، وقد تركت ترجمته فى مصر مع أوراق الأدبية الكثيرة . وعدت الى وطنى فى أواخر سنة ١٩٢٢ وحقيبتى مثقلة بآثار أدبية شتى وبرسائل لها أهميتها مع كثيرين من أكابر الرجال وفى مقدمتهم المرحوم محمد فريد بك ، فاذا بالجمرك يتشبث بالاحتفاظ بهذه الأوراق وقتياً لفحصها ، وقد كان سيف الأحكام العرفية مصلتاً فوق الرقاب ، واذا بهذه الأوراق لا تعود رغم ما بذل من المساعى لارجاعها ، واذا بها قد أبيدت كما أبيدت مأثوراتى التى تركتها فى مصر اوما أحسبُ أديباً جنى عليه الاغتراب والحرب

بأكثر مما جنيا عليّ ، وقد ترك كلُّ هذا في نفسي أثراً أليماً جداً ، ولولا تشجيع استاذي العزيز مطران وأخي الحبيب حسن الجداوي لزهدتُ في نشر أيّ جديد من شعري ، فضلاً عن جمع ما تيسّر جمعه من شتيته القديم ، دع عنك إعادة طبع شيء من ذلك القديم . . . وأين هذا وقيمته من جيد شعري المفقود ومترجماتي وتصانيفي في أكثر من عشر سنين ؟ ومَنْ لي الآن — في كهولتي ومتاعبي — بعواطف الصبا والشباب وبتلك الأحلام الذهبية وبتلك الموسيقية الثائرة التي تلاشت أصداؤها في المحيط ؟

ومهما يكن من شيء ففي هذا الديوان الصغير ذكرياتٌ عزيزةٌ عندي عاطفياً وأدبياً : فأما الأولى فملموحة في ثناياه ، وأما الثانية فترجع الى ما فيه من التجاوب مع أدب أستاذي مطران خاصة . فطلاقةُ التعبير وحرية التأمل والاتجاهات الفكرية الجديدة — كل هذه تتمثل في معظم مقطوعات الديوان وقصائده ، ومنها تدرجتُ الى مذهب تحرير النظم كما أومن بتحرير النثر ، متأثراً بأدب الجاحظ قديماً وبأدب مطران نفسه حديثاً وقد تجلى أبدع التجلي في (المجلة المصرية) التي حررّها ببراعة أدبية منقطعة النظير .

وقد كان والدي برغم تربيته الأزهرية عصريّ الروح في كثير من تصرفاته ، وكان السلاملك بداره الكبيرة في سراي القبة (من ضواحي القاهرة) بمثابة صالون أدبي في كل خميس ، فكان يجتمع لديه الكثيرون من أهل الفضل والأدب والمنزلة الاجتماعية ، وبينهم أشهر رجال الصحافة والأدب والشعر في مصر حينئذ ، وكان واسطة عقدهم استاذي خليل مطران . وهكذا تعلقتُ بحب هذا الرجل النبيل منذ

طفولتي ، وأتاح لي اصدار والدي لجريدة (الظاهر) اليومية و (الامام) الاسبوعية فرصاً شتى للاتصال بأعلام الأدب حتى أُشربت حبّ الصحافة والأدب منذ صغري ، فجرى قلمي بأول كتابة أدبية صحفية في سنة ١٩٠٥ على أثر حصولي على شهادة الدراسة الابتدائية وقد كان لها ما كان من الشأن في ذلك الوقت ، وكأنما كانت بمثابة شهادة أدبية لي أيضاً ! فلا عجب اذا عُنيت في سنة ١٩٠٨ باصدار مجلة قصصية هي (حدائق الظاهر) وباصدار كتابي الأدبي الأول (قطرة من يراع في الأدب والاجتماع) ، وإن لم يتجلّ نضوجي الأدبي قبل سنة ١٩٠٩ ، وهو نضوج نسبي على أي حال لا يقاس بجانبه نضوج الشباب في هذا الجيل الحاضر . ولولا افتتاني بمطران لكان الأرجح أن لا تثور روحي الأدبية تلك الثورة في محاولتي أن أقتفي خطواته السريعة ، ولولا مطران لما اجتذبتُ عناية كل من شوقي وحافظ بي ، ومطران هو الذي فرح بديواني الأول هذا على صغره أكثر من فرحي ، وكان واسطة التحية الكريمة من حافظ لهذا الشعر . وقد أحببتُ في حافظ وطنياته وحماسياته الفياضة بأصدق الشعور ، فسحرتني بساطتها وصدقها واعتبرتها منسجمةً مع العناصر الشعرية العالية في أدب أستاذي مطران الذي رأيت فيه مثلي الأعلى ... وهكذا بقي هذا الثالوثُ مؤثراً في نفسي زمناً ، ثم انفرد بالتأثير مطران ، وإن كان هذا لا ينفي تأثري في صباي كذلك بشخصيتين بارزتين : الأولى شخصية أحمد محرم الذي أعدّه في شعره الوطني والاجتماعي أسمى منزلةً من حافظ في جميع عناصر الشاعرية ، ولكنّ له نفسية النجم البعيد المتواري لا يلمح تألقه وقوته الا أهلُ البصر الحديد ، والأخرى شخصية مصطفى صادق

الرافعى الذى لمحتُ فيه آيات الذكاء والشاعرية ، ولكن يكاد ذكاؤه يفسد عليه عاطفته ، فأحببت الى الآن ذلك الذكاء المتوقد وقد بلغ ما كان ينتظر له بلوغه من الابداع الأدبى والشهرة الفائقة .

فهذا الديوان فى حسناته من ثمار مطران الأولى وفى عيوبه من آثار سنى المبكرة ، ولا أحبّ لدىّ من نشر تهنئته التى تفيض بالغبطة الأبوية وبفرحة المعلم بتلميذه ، فهى منه واليه :

ديوانُكَ الأولُ فتحٌ له ... ما بَعْدَهُ فى عالمِ الشِّعْرِ

أبرعُ ما كان بإطلاقِهِ ... ممهِّداً للخُلُقِ الحُرِّ

أصعدتَ بالإلهامِ فيه على ... أجنحةِ النسرِ الى النسرِ

علامَ لا يَطلبُ مستأسرٌ ... فكاكَهُ مِنْ رَهَقِ الأسرِ ؟

وما يُرَجّى مِنْ رُقِيٍّ الى ... أوجِ المعانى وَبِيَدِ الفكرِ ؟

(زكىٌّ) هذى نهضةٌ للنهى ... فى العصرِ كانت حاجةَ العصرِ

للفنِّ سرٌّ ضنَّ دهراً به ... وأنت مُبدى ذلك السرِّ !

تشفُّ عنه المحكماتُ التى ... نظمتها مِنْ فاخرِ الدُّرِّ

فالحسنُ مِنْ كلِّ مظناتهِ ... يبرزُ فيها لأولى الذِّكرِ

* * *

الى الأديب الحضرمي

[illegible]

ديوانك الأول فتحٌ له ما بعده في عالم الشعرِ

أبدعُ ما كان بإطلاقه مشيّداً للخلق والفكرِ

أجدتَ بالإلهام فيه على إحكامه النثر الى الشعرِ

نظام لا يطلب مستأثرا فخاله من نفثة الأسحرِ

وما يُرجّى من رقيٍّ الى أوج المعالي قيّدُ الفكرِ

تركتَ هذي نزهةً للنهى في العصر كانت حاجة العصرِ

للفنّ سرٌّ فُزتَ دهراً به وأنت مُبدٍ ذلك السرِّ

تشفّ عنه المحكمات التي وطّنتها من خاطر الفكرِ

فالحسن من كلّ مثانيه يبرز فيك لأولي الذكرِ

خليل مطران

٣ ديسمبر سنة ١٩١

(تهنئة مطران بخطه — مصغرة في النقل)

إلى صديقي [illegible] أحمد زكي أبو شادي

[illegible] العقول [illegible] الأروع

أهدى إلي قصيدة [illegible] لم [illegible]

[illegible] من [illegible] الشعر

صفاء [illegible] الماء [illegible] الأريج

تجلى [illegible] أو [illegible] في المسمع

من لي بنعيم الشباب وفكري المتنوع

فأجيد [illegible] الثناء على [illegible] المتبرع

[illegible] من [illegible]

أهدي [illegible] الكتاب [illegible] المستودع

أهلا بباكورة البديع من [illegible] الأروع

أهلا [illegible] تحية قلبي وأجيب [illegible]

[illegible] من صادق [illegible]

[illegible] وصده بأنبك المتطلع

[illegible] على [illegible] من [illegible]

[illegible] بين [illegible]

[illegible] [illegible] الأعمى

[illegible] لكن [illegible] غير [illegible]

[illegible] الهوى [illegible] المشرع

[illegible] في المجد [illegible]

[illegible] للعلى بجبال صفا المنبع

١٠ سبتمبر سنة ١٩١٠

مسودة قصيدة مطران العينية بخطه (مصغرة في النقل) وقد فقد الاصل بين ما فقد من أوراق الصبا

والناقد الأدبي المؤرّخ الذي يدرس آثار مطران وآثار تلاميذه — ولي الحظّ والشرف أن أكون بينهم — يجد أن روحانية هذا المعلم الجبار وقوته الفنية قد تركت في نفوسنا أبعد الآثار ، وأننا إنما نتابع رسالته في خطوات معقولة . فما نشوءُ الشعر المرسل ولا الشعر الحرّ ولا ما بلغناه من الحركة التحريرية المنظم ولا ما نتناوله من الموضوعات الانسانية والعالمية الا الرقيّ الطبيعي لرسالة مطران ، ولا يستطيع مطران نفسه أن ينكر ذلك بل هو يبارك باخلاص هذه الجهود وإن شاركناه في تقدير ألوان الجمال عند مخالفينا من أصحاب المذاهب الأخرى قوية كانت أم ضعيفة ، وهذا التسامح الفني — وإن يكن تسامحاً في حدود — هو خلق مطران المعهود ، خلق من يفتش عن ألوان الجمال والسليقة الفنية أينما كانت وإن كان له ذوقه الخاص ومذهبه الخاص .

ومنذ استحسن صديقي الأديب حسن الجداوي أن يضمّ ما يتاح له من الدراسات القيمة لآثاري المنشورة مساعدةً على تفهّمها ، وجدتُ من كثيرين من الأدباء مشاركةً له في هذا الاستحسان ، وعلى هذا النسق الأدبي تصدر هذه الطبعة من (أنداء الفجر) . وقد كان في مقدمة من استحسن هذا النسق صديقي الشاعر الناثر الدكتور زكي مبارك ، لأن هذه الدراسات تنقل القارىء الى الجو الذي يتنفس فيه الشاعر فيتبين عن كثب حقيقةَ خواطره وعواطفه والعوامل المؤثرة عليه ، وحينئذ تستطيع أن تتذوق آثارَ الشاعر أحسنَ التذوّق .

يقول الاستاذ جارود (استاذ الشعر في جامعة أكسفورد ، في دراسته للشاعر كيتس ، سنة ١٩٣٦) ما خلاصته أن الشعر الذي يستحقُّ المطالعة ربما لا يطالعه

معظمنا بالعناية الواجبة التي قد تجعلنا أهلاً للاطلاع عليه . نحن بطبيعة الحال نطالب الشعر بالمتعة ، ولكن الشعر كذلك يطالبنا بالجهد حتى نستمتع به . فقد ألف الناسُ قراءة الشعر بغير ذلك التأهب الروحي الذي يعد ضرورياً في العبادات الأخرى وبغير التنبه الوجداني الحتمي . والناس درجات في تفهم الشعر حتى أن وردزورث قسمهم الى أربعة أقسام .... وما كانت دراسة الشعر العالي أو نقده بالأمور الهينة ، فان ذلك يتطلب غاية المواهب الفنية ومنتهى الثقافة والدقة حتى يوزن الشعر بمنتهى العناية والأمانة كما يفحص الصيرفيُّ الجواهرَ غيرَ مخدوع بمظاهرها الخلابة ولا بصورها المتواضعة . . . ونحن نقرأ الكثير من نقد الشعر في وقتنا هذا مسرورين لاعتبار واحد وهو تنبهُ الناس الى أهمية الشعر بين الفنون الجميلة وأثره في تهذيب المدارك وصقل الشعور ، وما هذا بالقليل في ترقية الأمة فكرياً ، ولكننا لا نكاد نُنعم النظر في معظم ما يُنشرُ من نقدٍ حتى يتملكنا الأسفُ الشديدُ على ما نلاحظه من الاستهتار بالدرس والنقد ، وعلى تدخل عوامل خارجية (كالحزبية السياسية وما اليها) في الأحكام الأدبية حتى جرف هذا التيارُ الغاشمُ في طريقه غيرَ واحدٍ من مشهوري النقاد فأصبحنا نرى المتصنعين واللصوص من الشعراء تُخلع عليهم ألقابُ العبقرية لا لسبب سوى التضليل والحزبية والاعتبارات الشخصية ، ونجد غيرهم من الموهوبين يُنكر عليهم حتى التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ولو وردت نظائرها في القرآن الكريم وفي أشعار الفحول من المتقدمين مع أنها أدوات فنية لا غنى عنها للشعراء المتعمقين ، وتؤخذ عليهم قوة الاندماج والتصوف فيما حولهم من عوالم جليلة ودقيقة ، ويُتهمون

لتجاوبهم السكونى ولشعورهم بالشعر فى كل شىء وبفنية الحياة المختلفة ... ومحال إقناع هؤلاء السادة بأنهم لم يستكملوا بعد أدواتهم النقدية ومع ذلك يجيزون لأنفسهم أن يعيبوا على الشعراء المطبوعين عدم استكمال أدواتهم الشعرية ولو استكملوها باطلاعهم وبمرانتهم الطويلة أو بلغوا منها شأواً كبيراً ، وأنه لا يكفى لنقد الشعر أن يكون الناقد شاعراً فى روحه نزاعاً الى الانصاف ، بل ينبغى أن يكون كذلك واسع الثقافة واقفاً على المذاهب الأدبية وعلى أحدث أصول النقد ، وبعد كل هذا فالغالب أن يأتى النقد صورة من نفسية الناقد ومن ذوقه وميوله لا من الحق المطلق الذى لن يتحقق ... فالجزم فى الأحكام النقدية أو التعسف ازاء هذا إنما يكون عبثاً واستهتاراً بالشعر وبالنقد معاً.

إن من أولى تعاليم مطران التى تشبعت بها منذ حداثتى وجوب الاطلاع ، وقد أكببت على الاطلاع المتواصل منذ نشأتى حتى كنت أقلب « الأغانى » وغيره من أمهات الأدب العربى الميسورة فى منتصف العقد الثانى من عمرى تقليب المستهام بها ، كما أن من أولى تعاليمه ترك التصنع والحذلقة وارسال النفس على سجيتها ولكن إرسال المستعد المتمكن لا إرسال المستهين المهمل . وقد علقت بهذه المبادىء وطبقتها وترعرعت فى نفسى وفى أدبى ، فاذا خطوت تحت تأثيرها خطوات جريئة غير مسبوق اليها فلا يعنى هذا بتر صلتى بها وانما يعنى برى التام بروحها وغايتها . ولو تدبر الزملاء الناقدون وحاولوا التخلى عن المؤثرات الشخصية ونحوها لما وجدوا فى تصرفاتى ونزعاتى الأدبية وفى تصرفات أقرانى ونزعاتهم الا تقدماً طبيعياً بتعاليم مطران التجديدية ، فالحياة حركة واطراد وأما السكون فهو العدم .

يعتمد الشعرُ التقليديُّ وكثير من الشعر الحديث على الاستهواء الموسيقي لتخدير الأعصاب ذلك التخدير الخفيف الذي يجعل الشاعرَ قابلاً للتأثر برسالة الشاعر أقوى التأثر . ونحن لا نعيب اقتران الشعر بالموسيقى ، وكيف نعيب ذلك وقد نظمنا ما نظمنا من المسرحيات الغنائية ومن شعر الغناء وبيناري خيراً كثيراً في تزاوج الفنون الجميلة ؟ ولكن ما نعيبه هو عبودية الشعر للموسيقى حيثما ينبغي أن تكون للشعر سيادته . فبدل استهواء الشاعر بالأوزان وبالقوافي الرتيبة وحدها ، نرى أن الشعر جديرٌ بأن تكون له ذاتيته المستقلة الجميلة المؤثرة ، وأن يكون الاستهواء والتأثير الوجداني منه ذاتياً ، أي من إيحاء المعاني ومن روعة الخيال ، لا من الموسيقى اللفظية أولاً وأخيراً .

والشاعر الذي يقول :

الشاعرُ الساحرُ مَنْ أسكرَهْ ؟ ! مَنْ علّمَ الشاعرَ هذا الشَّرَهْ ؟ !
عيناكِ يا رُوحي ويا نعمتي ! عيناكِ إلهامُ الذي صوَّرَهْ !

الى آخر هذا الشعر الغنائي ، وقصائد أُخرى كثيرة مثله ، لا يشقّ عليه أن يلتزم هذا الطراز من الأداء الخلاب الرنان ، ولكنه يؤثر أن يؤدي رسالة « الشعر بالشعر للشعر » وهي التي يعتبرها مربية للمواهب الشعرية ضامنة لاستقلالها حتى اذا ما أراد الشاعرُ في أي وقتٍ تزاوجها والموسيقى اللفظية كانت رائدة ولم تجيءْ تابعة ، بعكس شعر العامة والشعر البدائي الذي تكون فيه الموسيقى هي الغالبة ، وهو الشائع الآن .

ولا أستطيع أن أدعي أن في هذا الديوان شاعرية تفوق ما فيه من موسيقية، ولعل هذا هو سرّ رضاء أصدقائي المحافظين عنه رضاءً خاصاً، بعكس دواويني الأخيرة التي تتجلى فيها الشاعرية المسيطرة كلّ التجلي فتؤثر فوراً على النفوس المهيأة لها ولا تتحايل عليها بالايقاع الرتيب، فهذا الشعرُ الجديدُ المتحرّر لا يرضى عنه أصدقائي المحافظون. ومن هؤلاء الأصدقاء مَن يعرف مبلغ عنايتي بنقد نفسي بنفسي بشدة وقسوة فلا يتورّط في اتهامي بالاهمال أو بالعجز عن البيان التقليدي، لأنه يعلم علم اليقين مبلغ طواعية اللغة لقلمي نظماً ونثراً، وإن لم أقنع أبداً بانتاجي. ومنهم مَنْ لا يعرف ذلك فيتورط ذلك التورُّط، ويساعدُ سكوتي وقلة مبالاتي على سريان العدوى الى النقاد — وحتى الى أذكيائهم — فيهرفون بما لا يعرفون عن طاقتي البيانية وقدرتي على التعبير، في حين أني لو شئتُ لجعلتُ كلّ شعري في مثل ذلك الأسلوب المدرسي الذي رثيتُ به المثّال مختار فهلّلوا له طويلا وعنوا على الاكثار منه، وقد جاء في استهلاله (١) :

مناحةَ الفنِّ ! ماتَ الفنُّ والعيدُ ‏ وماتتْ اليومَ في الجرّ الأناشيدُ !

ولو تدبّروا وتفهموا لما لجأوا الى مثل ذلك النقد العجيب، ولحصروا همهم في دراسة مذهبنا الفني في الشعر، معتمدين على القوة الشعرية في ذاتها لاستهواء المشاعر حتى يؤدّي الشعرُ رسالته، من إعزاز الخير وتقديس الجمال، تأديةً حرةً قويةً مستمدةً من صميمه فلا يكون فيها تابعاً لفنّ آخر ... ونتيجة هذا

(١) مجلة أبولو. أبريل سنة ١٩٣٤، ص ٦٦٧

المذهب تقويةُ المواهب الشعرية الى درجة بعيدة ، فلا نعود نسمع أن الشعر شعرٌ قبل كل شيء . وان القائل المتوجس : «إنى لأسمع صوتاً يقطر منه الدم!» هو شاعرٌ شاعرٌ وإن لم تقع ألفاظه فى نسقٍ موسيقىٍّ ولا فى سلكٍ منظومٍ وإن لم يعدّه قومه شاعراً .

وأكرّرُ أنى أعدّ مذهبي هذا هو وحده التطوُّر الطبيعى لمذهب مطران . ومما يؤسف له أن يتصدّى لنقدى وللنقد الأدبى عامةً كثيرون ليست لديهم المؤهلات لذلك ولا الموهبة النقدية ، وهؤلاء يفسدون بجلبتهم الجوّ الأدبى ويؤثّرون عن طريق الايحاء النفسانى حتى على خاصة النقاد أو على بعضهم أحياناً فيخلطون خلطاً فى أحكامهم ، حتى لا يتورّع معظمهم عن الحكم على الأعمال المتزنة بالاسفاف ، متناسين أن الأديب الناضج المطاع لا يمكن أن يسفّ ، وإنما تنوُّع آثاره يوهم الناقد السطحى أن فيها العالى والمتوسط والمنحط ، بينما لا تكون الا صوراً مختلفة من الحياة المتنوعة التى يعالجها ، فحتمٌ أن تجىء مختلفة البيان والروح والقوة والموسيقى حتى تنسجم وموحياتها وظروفها . ولن يكون النقد لشاعر من الشعراء منصفاً — على فرض أهلية الناقد — إلا إذا أخذ جميعَ آثار الشاعر كوحدةٍ أدبيةٍ متماسكةٍ .

واذا ضربنا صفحاً مؤقتاً عن الشعراء ونظرنا الى المصوّرين أمثال محمد حسن ومحمود سعيد وشعبان زكى ، فاننا نجد الأوّلَ فى تصوير أشخاصه يميل الى نزعة تصوفيةٍ تمثل كنه المرسوم وشخصيته المستترة ، بينما يميل الثانى الى ما سميته بالفنّ التوكيدى الذى يجعل الصورة كالتمثال المجسَّم الحىّ ، فى حين أن الأخير

يمن دائماً الى التعبير التأثرى الذى يعطيك فى نظرة خاطفة الشمائل البارزة للصورة : ولك ولى أن نختلف على أى من هذه المذاهب أفضل فى نفسك وفى نفسى ، ولكن ليس لى ولا لك أن نتهم أحداً من هؤلاء الفنانين البارعين بالعجز وأن اختيار هذه الطريقة أو تلك راجع الى قصور فى الأداء بدل رجوعه الى اختلاف فى الذوق الفنى ، بل الأولى بى وبك أن نتفهم رسالة كل منهم فى تقدير واحترام وإن لم تجتذبنا الا إحداها ، فكل منهم أستاذ لمدرسته . وهذه الروح السليمة هى التى ما تزال تنقص نقاد الأدب عندنا لتضع حداً لأحكامهم المدهشة ولشططهم وتهوّرهم .

يقول استاذى مطران فى تصدير (ديوان الخليل) : « قال بعض المتعنتين الجامدين من المتنطسين الناقدين : إن هذا شعر عصرى ، وهموا بالابتسام ، توهم أن من بوارق أسرتهم ما يكون أشد من وقع السهام . فيا هؤلاء ، نعم ! هذا شعر عصرى وفخره أنه عصرى وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر . هذا شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح ، ولا ينظر قائله الى جمال البيت المفرد ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام ، بل ينظر الى جمال البيت فى ذاته وفى موضعه والى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها ، وفى تناسق معانيها وتوافقها ، مع ندور التصوّر وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعور الحرّ وتحرّى دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر .... على أنى أصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة — ولا أعنى منظوماتى الضعيفة — هو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعاً » .

وقد سمعت من أستاذى مطران فى مدى السنين الطويلة التى نعمت فيها بصداقته وأستاذيته الكثير من الشواهد والتفاسير لهذا المذهب الذى تملكته به نفسى منذ نعومة أظفارى وعملت تدريجياً على التوسع فيه توسع النشوء والارتقاء عن طبع مواتٍ ، متابعاً نضوج سنى ونمو ثقافتى وازدياد تجاربى وتأملاتى ، فتطورت لغتى كما تطور العصر الذى نعيش فيه ، وتطورت نفسيتى التى أحبت وتعذبت وساحت وجربت ، وتطورت تبعاً لذلك أخيلتى وتعابيرى ومثلى العليا .
مثال ذلك تجاوبى والطبيعة ، فقد كان ذلك محدوداً فى ديوانى الأول ، تقليدى العبارة غالباً ، ولكنه لم يكن تقليدى النزعة بل مستمداً من الحياة ذاتها كما فى قصيدتى « أنفاس الخزامى » (ص ٤٩) ، فانى نشأت أحب هذه الأزهار وأحب النحل التى شغفت بها منذ سنة ١٩١٠ ، ولاحظت افتتان النحل بها ثم تبينت من أستاذى فى علم النبات أنها أزهار مصرية صميمة فازداد اعجابى بها ، وفى القصيدة المذكورة بعض التطلع الى المعنويات ولكنها لا تقارن بقصيدتى « حلم الفراشة » (ص ٧٧ من ديوان « الينبوع ») التى أقول فيها :

تطير الى الزهر فى خفة ... لتمتص منها الرحيق الشهى
وما تشتهى سوى زهرة ... تبادلها لونها القرمزى
تحوم عليها وتنشق منها ... جميل الشذى ، فالشذى نفسها
وتأبى التحول فى النشور عنها ... فاحساس زهرتها حسها
كأنا بزهرتها أصبحت ... فراشتنا الحلوة العاثرة

وتلك الفراشةُ حين انتشتْ على النور زهرتُها الطائرةْ
تبادلتا ما لكلتيهما من الحظّ والصورةِ الفاتنهْ
فصان التبادلُ نفسيهما وعاشا به عيشةً آمنهْ !

❀ ❀ ❀

كذلك تحلم في لهوها فراشتنا الحرّةُ الباسمهْ
فدعْها تغازلُ في وهمها خيالاتِ ساعاتها الحالمهْ

فهذه الأبيات هي وليدة الطبيعة التي أُعشقها والتي تلقيتُ عن مطران كما تلقيتُ عن صميم وجداني إيماني بها . وهي متحررةٌ في أسلوبها ، عصرية الألفاظ ، آخذة بأيسر وأصدق مذاهب البيان ، ولكنها الى جانب ذلك قوية الخيال مندمجة كل الاندماج في الطبيعة . وليس تشبيه الزهرة بالفراشة بالتشبيه المستحدث فهو شائع في الأدب العالمي ، ولكن هذه الصورة المركبة المتشعبة الدقيقة بأخيلتها ومعانيها هي صورتي ، ولا يمكن أن يكون لغيري أيّ نصيب فيها ، لأنها من صنع نفسي وخيالي وعبادتي للطبيعة ومن توليد شاعريتي الحرة . وأنا أدين في كل هذا لمطران ، فقد غرس في نفسي حبّ الاطلاع على سفر الطبيعة ، الى جانب اطلاعي العام الذي شمل مئات الكتب والمراجع في ثلاثين عاماً سلختُها كعبق للأدب من حياتي ، كما غرس في نفسي الاعتداد الفني الذي يزجيني بعد كل هذا الى ارسال شعري على سجيتي .

وقد تعلمتُ من مطران احترام المذاهب الأدبية المختلفة واحترام النقد ،

مهما حقّ لى أن أتشبث بآرائى الخاصة ، فان الأعمال الأدبية بعد إنتاجها ملك الجمهور والجمهور حرّ فى أن يقبل عليها أو لا يقبل ، والطبائع الانسانية جد مختلفة ، وللنقاد كلّ الحق فى حرية النقد فيجب احترام حريتهم كما نطالبهم باحترام حرية المؤلفين ، ولا يجوز أن يعدوَ نقاشهم البحثَ الأدبيّ المحض الذى يستفيد منه الأدب ، لا أن يكون لوناً من الملاكمة التى تخالف أدب النفس . ولعلى وُفقت فى حياتى الأدبية الى تطبيق تعاليمه هذه ، وإن تعصب لى فى مواقف كثيرة مَن تعصب من أصدقاء ومريدين .

ولا شك فى أن نفسية مطران المتسامحة المستوعبة هى التى ألهمتنى حُبّ الجمال على اختلاف صُوَرِه وكراهية الفردية ورغبتى الملحة فى التفتيش عن مواطن الحسن فى كل ما أقرأ من نثر ونظم . فمذهبُ الفردية فى الأدب لم يؤمن به مطران بل كان ضدّه دائماً ، وكذلك كنتُ وما زلتُ ضدّه كما تدلّ كتاباتى الكثيرة وأحدثها كتاباتى فى مجلة (أپولو) ، واحترامُ الغير وبغض الاباحية هو فى نظرنا كاحترام النفس والحرص على الكرامة سواء بسواء ، فاعتدادُنا بمذهبنا الأدبى وانتاجنا لا ينافى تقدير مجهودات مَنْ يخالفنا مذهباً ولا يسيغ إباحتها والاستهتار بها . ولذلك أنحى مطران كما أنحيت على من يختطفون خواطر شعراء الفرنجة وغيرهم فى غير تورّع بل فى انتقاص لمن ينقلون عنهم ... فلكلّ شاعر أن يطلعَ ، بل عليه أن يطلعَ ، وأن يهضم ما يطالعه ، وأن يتأثر بمن يعجب بهم ، ولكن عليه بعد هذا أن لا يسقط شخصيته ، وعليه أن يرسل نفسه على سجيتها ، وأن يعترف بفضل من تأثر بهم حيثما وُجِدَتْ المناسبات ، وتبعاً لذلك كانت اشارتى

الى الشاعر جبرائيل سيتون وإن كنتُ لا أذكر الآن مبلغ تأثرى بشعره عند ما نظمت أبيات موسيقى الوجود (ص ٦٤) فانى لم أهتد الى قصيدته المشار اليها .

واذا أخذنا على سبيل المثال الشاعر الروسى بوشكين حامل جائزة نوبل فى الآداب فلا جدال فى أنه تأثر بشعراء كثيرين من شعراء الغرب كما تأثر شكسبير فى انجلترا وجيته فى ألمانيا بل وعباقرة الشعراء فى أنحاء العالم ، ولكن تغلبت شخصياتهم على أعمالهم فى النهاية ، وهذا ما اعترف به دستويفسكى فى رسالته عن الشاعر بوشكين . ولقد تأثرتُ بمطران وشوقى وحافظ ومحرم والرافعى فى نواح مختلفة ولم أنكر مرة فضل هؤلاء الأعلام ، حتى فى الوقت الذى ثارت ثائرة المدرسة الشوقية على الشعراء المجددين ونالنى الكثير من لفحات نيرانها ، فانى أبيتُ إباءً مجاراة أصدقائى الذين تعصبوا الى أشد التعصب . . . . فاذا تجلت شخصيتى وازداد تجليها وسيطرتها التامة على عناصر شعرى وقد دانيتُ منتصف العقد الخامس من عمرى فليس فى ذلك بدعة ، بل لى كلُّ الحق فى التمكين لمذهبى الحر الذى أعتبره متفرعاً على مذهب مطران أو صورة منه هى صورة الرومانطيقية الشاملة .

يُذكر بالخير لسانت بيف انتصافه للشاعر الوجدانى ألفريد دى موسيه من زميله ومنافسه الشاعر الشهير لامارتين ، وهو انتصاف قوامه الشجاعة الأدبية الجمة . وكم بودّى أن أرى مثاله متكرراً أمامنا ، فتنصف مواهب شعراء الشباب بدل هذه الغيرة الحمقاء التى نراها من بعض الكهول والشيوخ شعراء ونقاداً . وروح الانصاف هذه ملموسة عند مطران ، ولولاها لما أُنصف مثلى فى دوائر

الخاصة على الأقل» ، فهذا فضل آخر لمطران كان له أثره البهيج في شعري بقدر ما كان لجمود البيئة عامة من آثار أخرى في شعري الثائر .

الشخصية الفنية الحرة — بل حسبي أن أقول الشخصية الفنية — هي أهم ما يقدسه مطران ، وهي ما تعودت أن أقدسه في ذاتي وفي غيري صديقاً كان أم خصماً ، وما أعرف إلا الخصومة البريئة : خصومة التفكير ، وأما ما عداها فليس أهلاً لأن يعد خصومة ، بل هو ما يزدرى وينسى . وهذه الشخصية الحرة هي روح شعري ، وآبى أن ينكر عليّ استحقاق حريته ، فقد عشت وما زلت أعيش تلميذاً على الطبيعة وعلى الثقافة الانسانية ، أجمع بين الاعتداد بنفسي وبين نهم الفنان الذي لا يرضى عما بلغ من مستوى فني ولا تنتهي مطامحه . فهو يتشبث بمذهبه وباعتداده وبكرامته ، ولكنه في الوقت ذاته يعزف عن التصنع الشائع وعن الادعاء الباطل وعن الكبرياء السخيفة ، فهذه ألوان من التزوير التي تعادي روح الأدب الصميم ، وما ابتلي أحد بها الا كان شراً على الأدب والأدباء . وما ترجع المعارك الدامية المشبوبة الآن بين الأدباء عامة الا الى هذا الطراز من المتصنعين والأدعياء بلغت ما بلغت مكانتهم وذكاؤهم وآثارهم ، ومعظمهم ممن انغمسوا في السياسة انغماساً طغى على ضمائرهم وعلى موازينهم الأدبية .

وصفوة القول أن أثر مطران في شعري هو أثر عميق لأنه يرجع الى طفولتي الأدبية ويصاحبني في جميع أدوار حياتي ، واذا كان استقلالي الأدبي متجلياً الآن في أعمالي فهو في الوقت ذاته يمثل الاطراد الطبيعي للتعاليم الفنية التي تشربتها نفسي الصبية من ذلك الاستاذ العظيم وما زالت تحرص عليها نفسي الكهلة الوفية ناظرة الى آثار الصبا والى معلمي الأول بحنان عميق هو أشبه الشعور بالتقديس والعبادة .

LIBRARY

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	١٩	هذ	هذا
١٦	٨	وَمَثَالا	وَمَثَلا
٣٣	٩	مُحِبَّتَ	مُحِبًّا
٣٩	١١	الأمّ	الأمل
٣٩	٨	عرقتُ	عرفتُ
٤٦	٢	كمتَ	كُنتَ
٥٨	٦	نمَّ	نمى
٦٤	٥	الفتاه	الفناه
٦٥	١	يمرح	يفرح
٦٦	١٠	العنان	الفنان
٦٩	٣	وبعوالم	وعوالم
٧٠	١١	عطمها	عطفها
٧٦	١٠	لميتة	الميتة
٨١	٩	الفذّه	الفذّة
٨٦	١٤	حبب	حبيب
٨٩	١٨	الساخرة	الساحرة
١٠٥	٧	فى الوقت	فى ذلك الوقت
١٠٦	٧	لنفس	لنفسى
١٠٧	١٣	قصائدة	قصائده
١١٨	١٤	طريقة	طريقه

فهرس

	صفحة			صفحة
تحية	لحافظ ابراهيم بك	٣	الى سجين القلم	٢٣
			عهد الصبابة	٢٤
			غدر الجمال	٢٥
اهداء الديوان		٥	بعد الفراق	٢٦
			الحب الحائر	٢٨
تصدير	لمحمد عبد الغفور	٧ — ١١	دمعة على قبر	٢٩
			الدنيا	٣٣
شعر الديوان		١٤ — ٧١	الراحل المقيم	٣٤
			شقيقي	٣٥
			عيش الحر	٣٦
أنداء الفجر		١٤	الى عبد الحليم حلمي المصري	٣٩
الحبّ والأمل		١٤	المثل الأقدس	٤٠
حياتان		٢٠	بحر الأماني	٤١
حظ الناقمين		٢٠	فؤادي	٤٢
التبرّم		٢١	أول الشهداء	٤٣
الألوهية		٢١	الى علي الغاياتي	٤٤
الشاعر المصور		٢٢	أوهام . . .	٤٥
قوس قزح		٢٣	حول تمثال مصطفى كامل	٤٧
على صفحة الماء		٢٣	أنفاس الخزامى	٤٩

[library stamp]

	صفحة
فجر الكريم	٥٠
عالم وعالم	٥٢
لوعة الخريف	٥٤
المتعرف	٥٨
الاستشفاء	٥٨
على قبر الشهيد	٥٩
وطني ! وطني !	٥٩
الطائر الجديد	٦٠
مسرح الليل	٦١
تيه الصبابة	٦٢
لم يحبونك ؟	٦٢
عبادات	٦٣
موسيقى الوجود	٦٤
باقة أنغام	٦٤
الاكسير	٦٥

	صفحة
الخالق الفنان	٦٦
بنات الخريف	٦٧
الساعة	٦٨
الوساوس	٦٩
الطائر الرقيب	٦٩
وحي المطر	٧٠
القطة اليتيمة	٧١
دراسات أدبية	٧٥—١٢٨
شاعرية أبي شادي لمصطفى عبد اللطيف السحرتي	٧٥
شخصية أبي شادي لعبد العزيز عتيق	٩٤
مطران وأثره في شعري لصاحب الديوان	١١٠